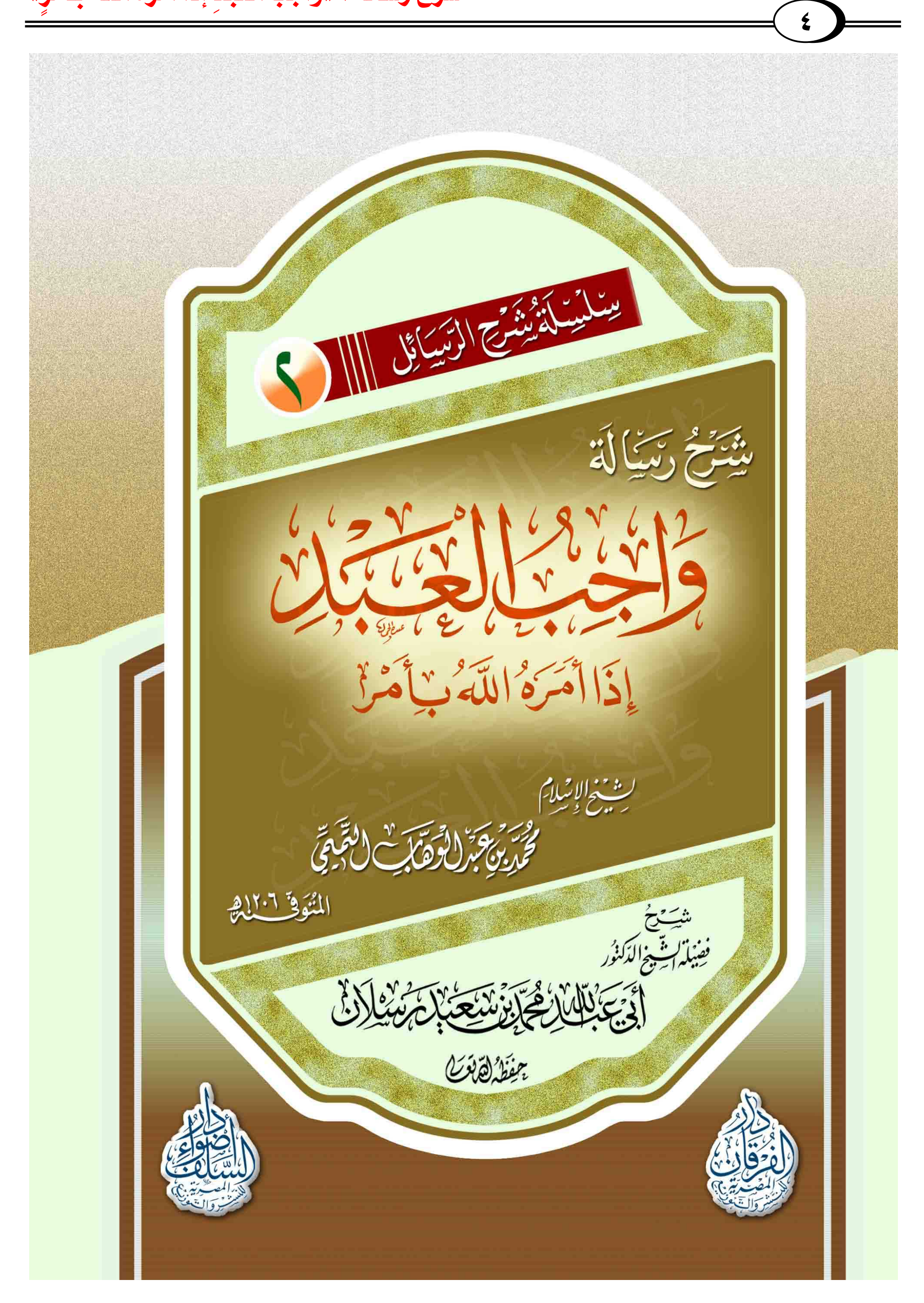

سلسلة شرح الرسائل
٢
شرح رسالة
واجب العبد
إذا أمره الله بأمر
لشيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب التميمي
المتوفى ١٢٠٦هـ
شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
حفظه الله
دار أضواء السلف
دار الفرقان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الحَمدَ للهِ، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا ومِنْ سَيئاتِ أعمَالِنَا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وأشهَدُ أنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ ورَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الْحَدِيثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهَدْيِ هديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ، وكلَّ ضَلالةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعدُ:

فَمِنَ الرَّسَائِلِ النَّافِعَةِ الْمُفِيدَةِ -عَلَىٰ وَجَازَتِهَا وَاخْتِصَارِهَا- رِسَالَةُ الإمامِ شَيخِ الإِسلامِ مُحمدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ بنِ سُليمَانَ بنِ عَلِيِّ بنِ مُحمدِ بنِ أحمَدَ بنِ رَاشِدٍ التَّمِيمِيِّ، الْمُتوفَّىٰ سنةَ ستٍّ ومِئَتينِ وَألفٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَىٰ-، وهذِهِ الرسَالةُ هيَ:

«واجبُ العبدِ إذا أمرَهُ الله بـأمرٍ»

فَمَا هوَ واجِبُ العَبدِ نحوَ مَا أمرَهُ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بهِ؟

هَذَا هوَ مَا حَاولَ الشَّيخُ -رَحِمَهُ اللهُ عَليهِ- أنْ يُجلِّيَهُ فِي هذِهِ الرِّسالَةِ الوَجيزَةِ المُختصَرَةِ، وهِيَ رسَالةٌ عظِيمةُ النفعِ جَليلَةُ القَدْرِ، وهَذَا شَرحٌ مُوجزٌ لهَا وتَعليقٌ مُختصرٌ عَليها.

أَسْأَلُ اللهَ تعَالَىٰ بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ المُثْلَىٰ، أَنْ يَرْزقَنَا فِيهِ الإِخْلَاصَ وَالقَبُولَ.

فَأَقُولُ:

عِلمُ ما كَلَّفَ اللهُ بِهِ عَبدَهُ وَالقيَامُ بهِ عَلَىٰ الوجْهِ الذِي كُلِّفَ بِهِ فعلًا وترْكًا هُوَ الغَايةُ التِي لأَجْلِهَا خلَقَ اللهُ الخَلقَ، فقَدْ خلَقَ اللهُ الإنسانَ لعِبادَتِهِ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

والدِّينُ كُلُّه دَاخِلٌ فِي العِبَادَةِ، والعِبادَةُ أَصلُ مَعنَاهَا الذلُّ، يُقالُ: طَرِيقٌ مُعبَّدٌ؛ إذَا كانَ مُذلَّلًا قَد وطَّأتهُ الأقدَامُ وعَبَّدتهُ، ولكِنَّ العبادَةَ التِي أمرَ اللهُ بِهَا العبدَ تَتضمَّنُ مَعنَىٰ الذلِّ ومعنَىٰ الحبِّ، فهِي تتضمَّنُ غايَةَ الذلِّ للهِ تعَالَىٰ بغَايةِ المحبَّةِ للهِ تعَالَىٰ.

قَالَ الإمامُ العَلامةُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي النُّونيَّةِ:

وعِبادةُ الرَّحْمَنِ غايةُ حُبِّهِ ... مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطبَانِ
وعَلَيهِمَا فَلَكُ العِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حتَّىٰ قامتِ القُطبَانِ
ومَدَارُهُ بِالأمْرِ أمْرِ رَسُولِهِ ... لا بالْهَوَىٰ والنَّفْسِ والشَّيطَانِ

فَعَلَىٰ هذَينِ القُطبَينِ -عَلَىٰ الحبِّ والذُّلِّ- دارَ فَلَكُ العِبادَةِ، ولَا يَكفِي أحدُهُما فِي عبادَةِ اللهِ تعَالَىٰ، بلْ يجِبُ أنْ يكُونَ اللهُ تعَالَىٰ أحبَّ إلَىٰ العَبدِ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، وأنْ يكُونَ اللهُ تعَالَىٰ أعظَمَ عِندَ العَبدِ مِن كُلِّ شَيءٍ، لَا يَستحِقُّ المَحبَّةَ التَّامَّةَ وَالخُضوعَ التامَّ إلَّا اللهُ،

وَكلُّ مَا أُحِبَّ لغَيرِ اللهَّ فمَحبتُهُ فاسِدةٌ، ومَا عُظِّمَ بغيرِ أمرِ اللهَّ فتَعظيمُهُ بَاطلٌ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

فالنِّزَاعُ هاهُنَا كمَا ترَىٰ فِي الأحَبِّيَّةِ وليسَ فِي الحِبِّيَّة، فَإنَّ اللهَّ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- هوَ الذِي خلَقَ الإنسَانَ وهوَ أعلمُ بهِ، وجَعَلَ طَبيعةً غريزيَّةً فِي الإنسَانِ أن يُحبَّ والدَهُ، وولَدَهُ، وزوجَهُ، وعَشِيرَتَهُ، ومالَهُ، وأرضَهُ، وتجارَتَهُ، فلَمْ يُكلِّفِ اللهُّ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- العبدَ بمَا لَا يستَطِيعُ، فهَذَا يُحبُّ بلا حَرجٍ، ولكِنْ لا تُقدَّمُ محبَّةُ شيءٍ مِن تلكَ المَذكُورَاتِ عَلَىٰ محبةِ اللهَّ ومحبَةِ رسُولِهِ ﷺ.

العبدُ يُرَاد بِهِ المُعبَّدُ الذِي عبَّدهُ اللهُّ فذَللهُّ ودبَّرهُ وصَرَّفَهُ، وبهَذَا الاعتبَارِ؛ وَبهَذَا المَعنَىٰ: المَخلُوقُونَ كُلُّهُم عبادُ اللهَّ -الأبرَارُ مِنهُم والفُجَّارُ، والمُؤمنُونَ والكُفَّارُ، وأهلُ الجنَّةِ وأهلُ النارِ-؛ إذْ هوَ ربُّهُم كُلِّهِم ومَليكُهُم، لا يخرُجونَ عَن مَشيئَتِهِ وقُدرَتِهِ وكَلماتِهِ التَّاماتِ التِي لا يُجَاوزُهَا برٌّ ولا فَاجِرٌ، فمَا شاءَ اللهُّ كانَ وإنْ لَم يشَاءُوا، ومَا شاءُوا إنْ لَمَ يشأْهُ لَمْ يكُنْ، كمَا قَالَ تعَالَىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

فهو سُبحانَهُ ربُّ العَالمِينَ، وخالِقُهُم، ورازِقُهُم، ومُحييهم، ومُميتهم، ومُقلِّبُ قُلوبِهم، ومُصرِّفُ أمورِهِم، لا رَبَّ لهُمْ غَيرُهُ، ولَا مَالِكَ لهُمْ سِوَاهُ، ولَا خَالقَ لهُمْ إلا هوَ، سوَاءٌ اعترَفُوا بذَلكَ أمْ أنكَرُوه، وسَواءٌ علِمُوا ذلِكَ أم جهِلُوهُ.

والعُبودِيَّةُ: منهَا مَا يتعَلَّقُ بالربُوبيَّةِ، ومنهَا مَا يتعَلَّقُ بِالإِلَهِيةِ، عُبوديةُ الرُّبوبيَّةِ لَمْ يَكُنْ فيهَا نزَاعٌ لأنَّ الكلَّ مَربوبٌ مَقهُورٌ مُسخَّرٌ مُذلَّلٌ للهِ -تَبَارك وتعَالَىٰ- بِهَذَا المَعنَىٰ الذِي مرَّ، وإنَمَا كانَ النزَاعُ فِي عُبوديَّةِ الألوهيَّةِ؛ إذَا عَرَفَ العَبدُ أنَّ اللهَ -تَبَارك وتعَالَىٰ- ربُّهُ وخَالقُهُ، وأنهُ مُفتقِرٌ إلَيهِ، مُحتَاجٌ إليهِ، عرفَ العُبوديَّةَ المُتعلِّقَةَ بربُوبيَّةِ اللهِ تعَالَىٰ.

وهَذَا العَبدُ يسألُ ربَّهُ، ويتضرَّعُ إلَيهِ، ويتوكَّلُ عَليهِ، ولَكنْ قَد يُطيعُ أمرَهُ وقَد يَعصِيهِ، وقَد يعبدُهُ معَ ذَلكَ وقَد يعبُدُ الشَّيطَانَ والأصنَامَ مِن دُونِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

فعُبودِيَّةُ الربُوبيَّةِ: لَمْ يَكُنْ فيهَا النزَاعُ؛ لأنَّ هذِهِ العُبوديَّةَ لا تُفرِّقُ بينَ أهلِ الجَنَّةِ وأهلِ النَّارِ، ولا يصِيرُ بِهَا الرجُلُ مُؤمنًا؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

قَالَ بَعضُ السَّلفِ: «تسألهُم مَن خلقَ السموَاتِ والأرْضَ؟ فَيقُولُونَ: اللهُ، وهُم معَ هَذَا يعبدُونَ غَيرهُ». وقَد كانَ المُشرِكُونَ يُقِرُّونَ بالحَقيقَةِ الكَونيَّةِ وتَوحيدِ الربُوبيَّةِ، إذْ هُم يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ رَبُّ كلِّ شَيءٍ ومَليكُهُ، كَمَا قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥].

وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩].

فالمشرِكُونَ كانُوا يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ تعَالَىٰ خالِقُهُم ورازِقُهُم، وهُم معَ ذلكَ يعبُدونَ غَيرَهُ.

وكَثيرٌ مِمَّنْ يتكلَّمُ فِي الحَقيقَةِ فيَشهَدُهَا يتكلَّمُ فِي الحَقيقةِ الكَونيَّةِ التِي يشترِكُ فيهَا

وفِي شهودِهَا وفِي مَعرفتِهَا المُؤمنُ والكَافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ، بَل وإبليسُ مُعترفٌ بهذِهِ الحَقيقةِ الكونيَّةِ، وأهلُ النَّارِ مُعترِفُونَ بِهَا أيضًا.

قالَ إبلِيسُ: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص:٧٩].

وقالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩].

وأمثالُ هَذَا منَ الخِطَابِ الذِي يُقرُّ فِيهِ إبلِيسُ بأنَّ اللهَ ربُّهُ وخالِقُهُ وخَالقُ غَيرِهِ.

وكذلِكَ أهلُ النَّارِ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون:١٠٦].

وقالَ تعَالَىٰ عَن أهلِ النَّارِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ [الأنعام:٣٠].

فَمَن وَقَفَ عِندَ هذِهِ الحَقيقَةِ وعِندَ شُهودِهَا، وَلَم يَقُمْ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الحَقيقَةِ الدِّينيَّةِ الشَّرعِيَّةِ التِي هيَ عبادَتُهُ المُتعلِّقَةُ بألوهيَّتِهِ وطَاعةِ أمرِهِ تعَالَىٰ وأمرِ رَسُولِهِ ﷺ كانَ مِن جِنسِ إبلِيسَ وأهلِ النَّارِ، وهَذَا يُخطِئُ فيهِ كَثيرٌ منَ الخَلْقِ، يتوقَّفونَ عِندَ شُهودِ الحَقيقَةِ الكَونيَّةِ وتَوحيدِ الربوبيَّةِ، والأصلُ أنَّ هَذَا لَم يُنازِعْ فيهِ إلَّا طَوائِفُ قليلَةٌ جِدًّا منَ البَشَرِ.

فأمَّا فِي القَديمِ: فكَانَ الدَّهريُّونَ يقُولونَ: نمُوتُ ونَحيَا ومَا يُهلِكُنَا إلَّا الدهْرُ.

وأمَّا فِي الحَديثِ: فالشُّيوعِيُّونَ، وقَد أخزَاهُمُ اللهُ تعَالَىٰ وأذلَّهُم.

وأمَّا جُملةُ الخَلقِ فإنَّهُم يُقرُّونَ بأنَّ اللهَ هُوَ خَالقُ كلِّ شَيءٍ، وهُوَ رَبُّ كُل شَيءٍ، وهُوَ مُدبِّرُ كلِّ شَيءٍ، وهَذَا هُو تَوحيدُ الربوبيَّةِ، فيتَوقَّفُونَ عندَ حُدودِ شُهودِ الحَقيقَةِ الكَونيَّةِ وتَوحيدِ الربُوبيَّةِ.

مَن وقَفَ عِندَ هذِهِ الحَقيقَةَ وعِندَ شُهودِهَا ولَم يَقُمْ بِمَا أمرَ اللهُ بِهِ مِنَ الحَقيقَةِ الدِّينيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ التِي هِي عبَادَتُهُ المُتعلِّقَةُ بألوهِيَّتِهِ وطاَعةِ أمْرِهِ تعَالَىٰ وَأمرِ رسُولِهِ ﷺ؛ كانَ مِنْ جِنسِ إبلِيسَ وأهلِ النَّارِ.

وأمَّا العُبوديَّةُ المُتعلِّقَةُ بِالإلهيَّةِ فالعَبدُ فيهَا بمعنَىٰ العابِدِ، مرَّ فِي العُبوديَّةِ المُتعلِّقةِ بالربوبيَّةِ أنَّ الإنسَانَ فيهَا عَبدٌ بِمَعْنَىٰ المُعَبَّدِ، وهُنا بمعنَىٰ العَابِدِ فَيكُونُ عَابدًا للهِ لَا يَعبُدُ إلَّا إيَّاهُ، فَيُطِيعُ أَمْرَهُ وأمْرَ رَسُولِهِ ﷺ، ويُوالِي أولِيَاءَهُ المُؤمِنِينَ المُتَّقِينَ، ويُعَادِي أعدَاءَهُ، ولِهَذَا كانَ عُنوانُ التَّوحِيدِ «**لَا إلهَ إلَّا اللهُ**»، بخِلافِ مَن يُقرُّ بربوبيَّتِهِ تعَالَىٰ وَلا يَعبُدُهُ، أَو يَعبُدُ مَعهُ إلَهًا آخَرَ.

فالإلَهُ هُوَ الذِي تَأْلَهُهُ القُلوبُ بكَمَالِ الحُبِّ والتَّعظيمِ والإجلَالِ وَالتَّكرِيمِ، والخَوفِ والرجَاءِ ونَحوِ ذَلكَ.

وهذِهِ العبَادَةُ هيَ التِي يُحبُّها اللهُ ويَرضاهَا، وبِهَا وصَفَ المُصطَفَيْنَ مِن عِبادِهِ، وبها بَعثَ رُسُلَهُ.

وأمَّا العَبدُ بمعنَىٰ المُعبَّدِ المُذلَّلِ المُسخَّرِ المَقهُورِ فسَواءٌ أقرَّ بذَلكَ أوْ أنكَرَهُ فهُوَ بِهَذَا المعنَىٰ يشتَرِكُ فِيهِ المُؤمنُ والكَافِرُ، حتَّىٰ إبلِيسُ، وحتَّىٰ أهلُ النَّارِ كلُّهُم عَلَىٰ هَذَا المَعنَىٰ، وفِي هَذَا الفَلَكِ يَدورُونَ، لا يخرُجونَ عَنِ التَّسخِيرِ والقَهرِ والتَّذليلِ، ولَكنَّ عُبودِيَّةَ الألوهِيَّةِ هي الَّتِي يَكُونُ العَبدُ فِيهَا بمعنَىٰ العَابدِ الذِي يتوجَّهُ إلَىٰ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ بالعِبادَةِ يَعبدُهُ لا يَعبُدُ أحَدًا سِواهُ ويُطيعُ أمرَ رَسُولِهِ ﷺ.

بِالفَرقِ بينَ هذَينِ النَّوعَينِ يُعرَفُ الفَرقُ بينَ الحقَائقِ الدِّينيَّةِ الداخِلَةِ فِي عبَادةِ اللهِ ودِينِهِ وأمرِهِ الشرعِيِّ، وهذِهِ الحقَائقُ الدينيةُ هيَ التِي يُحبُّها اللهُ ويَرضَاهَا ويُوالِي أهلَهَا ويُكرمُهُم بجَنتِهِ، يُعرَفُ الفَرقُ بينَ الحقائقِ الدينيةِ الشرعِيةِ وَالحقَائقِ الكَونيةِ التِي

يشتَرِكُ فيهَا المُؤمنُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ، وهيَ التِي مَنِ اكتَفَىٰ بِها ولَمْ يَتَّبعِ الحقَائقَ الدِّينيةَ الشرعِيةَ كانَ مِنْ جِنسِ إبلِيسَ اللَّعينِ والكافِرينَ برَبِّ العَالِمِينَ، ومَنِ اكتَفَىٰ فيهَا ببَعضِ الأمُورِ دُونَ بَعضٍ، وفِي مَقامٍ دُونَ مَقامٍ، أو حَالٍ دُونَ حَالٍ؛ نَقَصَ مِن إيمَانِهِ وولايَتِهِ للهِ بِحَسَبِ مَا نقَصَ مِنَ الحقَائقِ الدينيَّةِ.

فَالإنسَانُ عَليهِ إذَا كانَ مُسلِمًا أَمرَهُ لربِّهِ حقًّا، مُؤمنًا بنبيِّهِ صِدقًا ﷺ - عَليهِ أنْ يُحقِقَ عُبوديَّةَ الألُوهِيَّةِ، بأنْ يكُونَ عَابدًا للهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ-، صارِفًا كلَّ ألوَانِ العبَادَةِ للهِ ربِّ العَالِمِينَ وحدَهُ، لا يعبُدُ غَيرهُ، وَلا يتَوَكَّلُ عَلَىٰ أحدٍ سِوَىٰ ربِّهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ-، ويُطِيعُ أمرَ نبيِّهِ ﷺ.

فَتحقِيقُ العُبوديةِ المُتعلِّقةِ بالإلَهيَّةِ وهيَ العُبوديَّةُ التِي يُحبُّها اللهُ ويَرضَاهَا ويُوالِي أهلَهَا ويُكرِمُهُم بِجنَّتِهِ؛ تَحقيقُ تِلكَ العبودِيَّةِ لا يكُونُ إلا بِعبادَةِ اللهِ وحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وبطَاعَةِ أمرِهِ وأمْرِ رَسُولِهِ ﷺ، ومُوالَاةِ أوْلِيائِهِ، ومُعَادَاةِ أعدَائهِ.

وتَحقيقُ العَبدِ مَا أوجَبهُ الربُّ تعَالَىٰ عَليهِ منَ الوَاجبَاتِ نَحوَ أمرِهِ تَحقيقٌ لِتلكَ العُبوديَّةِ.

ورِسالَةُ الشَّيخِ -رَحِمهُ اللهُ تعَالَىٰ- عُنوَانُها: **«وَاجبُ العَبدِ إذَا أمَرَهُ اللهُ بأمْرٍ»**.

بِمعنَىٰ: مَا هُو وَاجبُ العَبدِ نحوَ مَا أمرَهُ اللهُ تعَالَىٰ بِهِ؟

وَفِيمَا يَلِي -إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- شَرحٌ مُوجَزٌ للرسالةِ، وتعليقٌ مختصرٌ عليها.

والشَّرحُ والتَّعليقُ مُحاضرةٌ أُلقيت -بحولِ اللهِ وقوتِهِ- في مسجدِ الغفرانِ، بالحيِّ الثامنِ، بمدينةِ نصر، مِن أَعْمَالِ مصر -حَرَسَهَا اللهُ وَسَائرَ بِلَادِ المُسْلِمِين-.

وَقَدْ كَانَت تِلْكَ المُحَاضَرةُ لَيلَةَ الإثنين الحَادِي والعِشرِين مِن جُمَادَىٰ الأولَىٰ مِن

السَّنَةِ التَّاسعَةِ والعِشرِين وأربعمئة وألف مِن هِجرةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، المُوافق للسادسِ والعشرين من الشهر الخامس لعام ثمانية وألفين من ميلاد عَبْدِ اللهِ ورسولِهِ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ، عَلَىٰ نبيِّنَا وَعَليهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَن يَجعلَ هَذَا العملَ خَالِصًا لوجهِهِ، وَأَن يرزقَنَا فِيهِ الإِخلَاصَ والقبولَ، وَأَن يَجزيَ خَيرًا كُلَّ مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ طَبعِهِ وَنَشرِهِ، وَإِذَاعتِهِ وَبَثِّهِ، وَكُلَّ مَنْ نَظَرَ فِيهِ ودلَّ عَلَيهِ.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد رسلان

مَتنُ الرِّسَالَةِ

قَالَ -رَحِمَهُ الله تَعَالَىٰ-(١):

إِذَا أَمَرَ اللهُ العَبْدَ بِأَمْرٍ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ:

الأُولَىٰ: الْعِلْمُ بِهِ.

الثَّانِيَةُ: مَحَبَّتُهُ.

الثَّالِثَةُ: العَزْمُ عَلَىٰ الفِعْلِ.

الرَّابِعَةُ: العَمَلُ.

الخَامِسَةُ: كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَىٰ المَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا.

السَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِن فِعْلِ مَا يُحْبِطُهُ.

السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ.

إِذَا عَرَفَ الإِنْسَانُ: أَنَّ الله أَمَرَ بالتَّوْحِيدِ، وَنَهَىٰ عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ: أَنَّ الله أَحَلَّ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؛ أَوْ عَرَفَ: أَنَّ الله حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ اليَتِيمِ، وَأَحَلَّ لِوَلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا؛ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ المَأْمُورَ بِهِ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَىٰ أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ المَنْهِيَّ عَنْهُ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَىٰ أَنْ يَعْرِفَهُ.

(١) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (ج٢/ ٧٤-٧٦).

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالمَسْأَلَةِ الأُولَىٰ، وَهِيَ: مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ والشِّرْكِ.

أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ، وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ، وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: أَنَّ الله حَرَّمَ الرِّبَا، وَبَاعَ وَاشْتَرَىٰ وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَجَوَازَ الأَكْلِ بِالمَعْرُوفِ؛ وَيَتَوَلَّىٰ مَالَ اليَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ.

* المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: مَحَبَّةُ مَا أَنْزَلَ الله، وَكُفْرُ مَنْ كَرِهَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد:٩].

فَأَكْثَرُ النَّاسِ: لَمْ يُحِبَّ الرَّسُولَ، بَلْ أَبْغَضَهُ، وَأَبْغَضَ مَا جَاءَ بِهِ، وَلَو عَرَفَ أَنَّ الله أَنْزَلَهُ.

* المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: العَزْمُ عَلَىٰ الفِعْلِ؛ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: عَرَفَ وَأَحَبَّ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْزِمْ؛ خَوْفًا مِن تَغَيُّرِ دُنْيَاهُ.

* المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: العَمَلُ؛ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: إِذَا عَزَمَ أَوْ عَمِلَ وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَن يُعَظِّمُهُ مِن شُيُوخٍ أَوْ غَيْرِهِم تَرَكَ العَمَلَ.

* المَرْتَبَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ عَمِلَ لَا يَقَعُ عَمَلُهُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا لَمْ يَقَعْ صَوَابًا.

* المَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِن حُبُوطِ العَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]. وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا.

* المَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَىٰ الحَقِّ وَالخَوْفُ مِن سُوءِ الخَاتِمَةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ

مِنْكُم مَن يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ».

وَهَذِهِ أَيْضًا: مِن أَعْظَم مَا يَخَافُ مِنْهُ الصَّالِحُونَ؛ وَهِيَ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا؛ فَالتَّفَكُّرُ فِي حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ، فِي هَذَا وَغَيْرِهِ، يَدُلُّكَ عَلَىٰ شَيْءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ؛ وَاللهُ أَعْلَمُ.

❊ ❊ ❊

قَالَ -رَحِمَهُ الله تَعَالَىٰ-:

إِذَا أَمَرَ الله العَبْدَ بِأَمْرٍ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ:

الأُولَىٰ: الْعِلْمُ بِهِ.

الثَّانِيَةُ: مَحَبَّتُهُ.

الثَّالِثَةُ: العَزْمُ عَلَىٰ الفِعْلِ.

الرَّابِعَةُ: العَمَلُ.

الخَامِسَةُ: كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَىٰ المَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا.

السَّادِسَةُ: التَّحْذِيْرُ مِن فِعْلِ مَا يُحْبِطُهُ.

السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ.

الشـــرح

هَذَا يَنبغِي أنْ تجعلَهُ دَائمًا نُصبَ عَينيكَ، وبِإزَاءِ عَينِ بصِيرتِك، وأنْ تتأمَّلَ فيهِ مَليًّا، وأنْ تُحققَهُ فِي كلِّ أمرٍ أمرَكَ اللهُ ربُّ العَالمِينَ بهِ، إذَا أمرَ اللهُ العَبدَ بِأمرٍ وجَبَ عَليهِ فِيهِ سَبعُ مرَاتبَ: «**الأولَىٰ: العِلمُ بهِ، الثانِيةُ: محَبَّتُهُ**»، محبةُ أمرِ اللهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- الذِي أُمرَ العَبدُ بهِ: «**الثالِثةُ مِنَ المَراتبِ: العَزمُ عَلَىٰ الفعلِ، الرابِعةُ: العمَلُ، الخَامسَةُ: كونُهُ يقَعُ عَلَىٰ المَشروعِ خالِصًا صَوابًا، السادِسَةُ: التحذِيرُ مِن فِعلِ ما يُحبِطُهُ**»؛ يعنِي: بعدَ وُقوعِ العَملِ: «**السابِعةُ: الثبَاتُ عَليهِ**».

وهذِهِ المَراتِبُ السبعُ التِي ذكرهَا الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رتَّبهَا تَرتيبًا حسَنًا مُتصاعِدًا مُوافِقًا لَمطلوبِ الشَّرعِ، فالعمَلُ ومَا قَبلهُ منَ العِلمِ بهِ والمَحبَّةِ لهُ والعَزمِ عَليهِ؛ كلُّ هَذَا يؤدِّي

بَعضُهُ إِلَىٰ بَعضٍ، ويتَرتَّبُ بَعضُهُ عَلَىٰ بَعضٍ، فإذَا وَقعَ العَملُ وجَبَ أنْ يتوفَّرَ فِيهِ شَرْطَا قَبولِهِ وهُما: **الإخلَاصُ، والمُتابَعَةُ**، حيثُ لا يُقبَل عملٌ إلَّا بِهمَا، وهُو مَا عبَّرَ عنهُ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهُو مَا كانَ دائِرًا ومَا زَالَ فِي لسَانِ السلَفِ: «**كونُهُ يقعُ عَلَىٰ المَشْروعِ خَالصًا صَوَابًا**».

الخَالِصُ: أنْ يكُونَ للهِ.

والصَّوابُ: أنْ يكُونَ عَلَىٰ وَفْقِ سُنَّةِ رسُولِ اللهِ ﷺ.

فهَذَا التَّرتيبُ الذِي رتَّبهُ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَرتيبٌ حسَنٌ جدًّا مُتصاعدٌ مُوافقٌ لَمطلوبِ الشَّرعِ.

العمَلُ ومَا قَبلَ العَملِ منَ العِلمِ بِهِ والمَحبَّةِ لهُ والعَزمِ عَليهِ، كلُّ هَذَا يُؤدِّي بَعضُهُ إِلَىٰ بعضٍ، ويتَرتَّبُ بعضُهُ عَلَىٰ بَعضٍ، فإذَا وقَعَ العَملُ وجَبَ أنْ يتوَفَّرَ فِيهِ شَرطَا قَبولِهِ عِندَ اللهِ تعَالَىٰ، وهُما: **الإخلَاصُ والمُتابَعةُ**، حيثُ لا يُقبَلُ عملٌ إلا بِهمَا.

ويَجِبُ عَلَىٰ العَبدِ بَعدَ الإتيانِ بالعَملِ مُتوفرًا فِيهِ شَرْطَا قَبولِهِ مِنَ الإخلَاصِ والمُتابَعَةِ أن يَحرِصَ عَلَىٰ ألَّا يُحبِطَهُ، لأنَّ هَذَا البَابَ منَ الأبوَابِ الدَّقِيقَةِ جدًّا فِي دِينِ اللهِ -جلَّ وعَلا- ومَا أكثرَ الذِينَ يأتُونَ بالأعمَالِ كمَا سَيأتِي -إنْ شاءَ اللهُ تعَالَىٰ-، وكمَا أخبرَنَا النَّبيُّ ﷺ: «**يأتُونَ بأعمَالٍ عَظيمةٍ منَ الطَّاعَاتِ يَومَ القِيامَةِ بَيضاءَ أمثَالِ جِبالِ تِهامَةَ فَيجعلُهَا اللهُ تعَالَىٰ هبَاءً مَنثُورًا**»[1]؛ لأنَّها لَم تُحرَّزْ ولَم تُحْمَ مِن دُخولِ مَا يُحبِطُهَا، فَدَخلَ عَليهَا مَا يُحبِطُهَا فجَعَلَهَا اللهُ -جلَّ وعَلا- هبَاءً مَنثُورًا كَمَا ذَكَرَ ذَلكَ الرَّسُولُ ﷺ،

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وصححه الألباني فِي صحيح الجامع (٥٠٢٨).

ورَوَىٰ ذَلكَ ثوبَانُ ﷺ، والحَدِيثُ أخرَجهُ ابنُ ماجَه فِي سُننِهِ وإسنَادُهُ ثَابتٌ صَحِيحٌ.

فيجِبُ عَلَىٰ العَبدُ بَعدَ الإتيَانِ بالعَمَلِ مُتوفِّرًا فِيهِ شَرطَا قَبولِهِ مِنَ الإخلَاصِ والمُتابَعَةِ أنْ يحرِصَ عَلَىٰ ألَّا يُحبِطَهُ، وهَذَا بَابٌ دَقيقٌ قلَّ مَنْ يَلِجُهُ، كَمَا قَالَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ: «**وهَذَا مِن أقلِّ الأشيَاء فِي زَمَانِنَا**»، فِي زمَانِهِ هُوَ: فَكيفَ فِي زَمانِنَا نَحنُ؟ نسأَلُ اللهَّ الثَّباتَ والعَافِيةَ.

فإذَا أَتَىٰ العبدُ بتِلكَ المَراتِبِ فِيمَا يتَعَلَّقُ بمَا أوجَبهُ اللهُّ عَليهِ وجَبَ عَليهِ أن يثبُتَ عَلَىٰ مَا كُلِّفَ بِهِ، وألَّا ينكُصَ عَلَىٰ عَقِبَيهِ، وأنْ يحذَرَ سُوءَ الخَاتِمَةِ.

بعدَ أنْ ذَكرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ المَرَاتبَ السبعَ مُجملَةً عَلَىٰ هَذَا النحوِ الذِي عَلمتَ؛ شَرعَ فِي ذِكرِها مرَّةً ثانِيةً مُنبِّهًا عَلَىٰ أهميَّتِهَا، بذِكرِ المَخاطِرِ التِي تنتُجُ عنْ فَقدِهَا، أوْ عَدَمِ التَّحقُّقِ بِها، فقَالَ رَحِمَهُ اللهُ مُشِيرًا إِلَىٰ المَرتبَةِ الأولَىٰ وهِيَ العِلمُ بمَا أمرَ اللهُّ رَبُّ العَالِمِينَ بِهِ وأوجَبهُ.

❋ ❋ ❋

إِذَا عَرَفَ الإِنْسَانُ: أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ، وَنَهَىٰ عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللهَ أَحَلَّ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؛ أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ اليَتِيمِ، وَأَحَلَّ لِوَلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا؛ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ المَأْمُورَ بِهِ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَىٰ أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ المَنْهِيَّ عَنْهُ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَىٰ أَنْ يَعْرِفَهُ.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالمَسْأَلَةِ الأُولَىٰ، وَهِيَ: مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ والشِّرْكِ.

أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ، وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ، وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الرِّبَا، وَبَاعَ وَاشْتَرَىٰ وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَجَوَازَ الأَكْلِ بِالمَعْرُوفِ؛ وَيَتَوَلَّىٰ مَالَ اليَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ.

الشـرح

«إِذَا عَرَفَ الإِنْسَانُ: أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ، وَنَهَىٰ عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللهَ أَحَلَّ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؛ أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ اليَتِيمِ، وَأَحَلَّ لِوَلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا؛ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ المَأْمُورَ بِهِ»؛ لأنَّ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ يَعلمُ أنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- فرَضَ عَليهِ التَّوحيدَ، ونَهاهُ عنِ الشِّركِ، وحَظَرَهُ عليهِ، ولَكنَّهُ لَا يَبحثُ فِي هَذَا المَأمُورِ بِهِ فيأتِي بالتَّوحِيدِ المُجمَلِ، ويَأتِي أيضًا بِالابتِعَادِ عنِ الشَّركِ مُجمَلًا، وهَذَا أمرٌ خَطيرٌ جِدًّا، حتَّىٰ إنَّ الذِينَ يقُومُونَ بالدَّعوَةِ إلَىٰ اللهِ -جلَّ وعَلا- إذَا دَعَوا النَّاسَ إلَىٰ التَّوحِيدِ المُجمَلِ لَم يُعانِدْهُم أحَدٌ، ولَم يَجحَدْ كَلَامَهُم أحَدٌ، وقُبِلَ كَلامُهُم، لأنَّهُ يأتِي بالتَّوحِيدِ المُجمَلِ والكُلُّ يَشترَكُ فِي هَذَا الأمرِ كَلامًا.

وكذَلكَ إذَا نَهَىٰ عنِ الشِّركِ مُجملًا مِن غَيرِ تَفصيلٍ، فإنَّهُ لا يَجِدُ مَن يُعانِدُهُ ولَا مَن

يَحملُ عَليهِ، وأمَّا إذَا أخذَ فِي تَفصِيلِ التَّوحِيدِ الذِي جَاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ -تَوحيدُ العَزيزِ المَجِيدِ-، وفِي تَفصِيلِ الشِّركِ وَقعتِ الخُصومَةُ، وهذِهِ الخُصومَةُ قَامَتْ بَينَ النَّبيِّ ﷺ والكَافِرينَ المُشركِينَ مِن قَومِهِ عِندَمَا دَعاهُمْ إلَىٰ اللهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بِإخلاصِ العِبادَةِ لوَجهِهِ الكَرِيمِ.

فالإنسَانُ يَنبَغِي عَليهِ: «**أَنْ يَعْلَمَ المَأْمُورَ بِهِ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَىٰ أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ المَنْهِيَّ عَنْهُ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَىٰ أَنْ يَعْرِفَهُ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالمَسْأَلَةِ الأُولَىٰ، وَهِيَ: مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ والشِّرْكِ.**

أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ، وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ، وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: أَنَّ الله حَرَّمَ الرِّبَا، وَبَاعَ وَاشْتَرَىٰ وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَجَوَازَ الأَكْلِ بِالمَعْرُوفِ؛ وَيَتَوَلَّىٰ مَالَ اليَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ».

الجَامعُ لَمَا ذَكرَهُ الشيخُ رَحِمَهُ اللهُ، والمُنْجِي منَ الوقُوعِ فِي المَحذُورِ أنْ يُحقق العَبدُ هذِهِ القاعدَةَ وهِيَ: **أنَّ مَا وَجبَ عَليكَ فِعلُهُ وَجبَ عَليكَ تعلُّمُهُ.** وُجوبًا عَينيًّا، والعِلمُ منهُ مَا هُوَ فَرضٌ عَلَىٰ الكِفايَةِ، ومِنهُ مَا هُوَ فرضٌ عَلَىٰ التَّعيينِ.

وَكَلامُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ فِي ذِكرِ مَن أعرَضَ عَن تعَلُّمِ مَا هُوَ فَرضُ عَينٍ عَليهِ تعلُّمُهُ، وقَدْ **قالَ شَيخُ الإسلَام** رَحِمَهُ اللهُ **كمَا فِي مَجمُوعِ الفَتَاوىٰ**: «وطَلَبُ العِلمِ الشَّرعيِّ فَرضٌ عَلَىٰ الكِفايَةِ إلَّا فيمَا يتعيَّنُ، مِثلَ طَلَبِ كُلِّ واحِدٍ عِلمَ مَا أمرَهُ اللهُ بِهِ ومَا نَهاهُ عَنهُ، فإنَّ هَذا فَرضٌ عَلَىٰ الأعيَانِ».

فإذَا عَرَفَ الإنسَانُ أنَّ اللهَ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- أوجَبَ عَليهِ أنْ يُوحِّدَهُ سُبحانَهُ، وألَّا يَشرِكَ بِهِ شَيئًا، فعَليهِ ألَّا يتوقَّفَ عِندَ حُدودِ هَذا العِلمِ المُجمَلِ، وإنمَا يَنبغِي عَليهِ أنْ يبحثَ،

وأنْ يسألَ لِيعرِفَ ماذَا أرَادَ اللهُ -تبَاركَ وتعَالَىٰ- مِنهُ؟ ومَا الذِي حَظَرَهُ اللهُ -تبَاركَ وتعَالَىٰ- عَليهِ وحَرَّمهُ؟ وهَذَا فرضٌ عَلَىٰ الأعيَانِ، فهَذَا فَرضُ عَينٍ عَلَىٰ كُلِّ مُكلَّفٍ، وضَربَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلْمَرْتَبَةِ الأولَىٰ وهيَ «**العِلمُ**»، الأمثَالَ.

فذَكرَ التوحِيدَ والشِّركَ، وأنَّ العَبدَ إذَا عَلِمَ أنَّ اللهَ أمرَ بالتَّوحِيدِ ونَهَىٰ عنِ الشِّركِ فَقَد وجَبَ عَليهِ أنْ يسألَ، وألَّا يُعرِضَ حتَّىٰ يعرِفَ المَأمُورَ فيأتِي بِهِ، ويَعرفَ المَحظُورَ فيَجتَنبَهُ. ومَا أمرَنَا اللهُ تعَالَىٰ بِهِ مِن أمرٍ فلَا يُمكنُ الإتيَانُ بِهِ إلَّا بَعدَ العِلمِ بِهِ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

قَالَ البُخارِيُّ -رَحِمهُ اللهُ تعَالَىٰ-: «**بابٌ: العِلمُ قَبلَ القَولِ والعَملِ**»، و«**بَابٌ**»: بالتَّنوِينِ؛ لأنهُ مَقطُوعٌ عنِ الإضافَةِ، «**والعِلمُ**» مُبتدَأٌ «**قَبلَ القَولِ**»، خَبرُهُ «**بابٌ: العِلمُ قَبلَ القولِ والعَملِ**»، فبابٌ -كمَا مرَّ-: مَقطوعٌ عنِ الإضَافةِ فتَأتِي مُنوَّنةً، وهَذَا لقَولِ اللهِ -تبَاركَ وتعَالَىٰ-: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، فذَكرَ العِلمَ مُقدَّمًا عَلَىٰ القولِ والعَملِ.

واستدلَّ البُخارِيُّ -رَحِمهُ اللهُ تعَالَىٰ- بهذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ وجُوبِ البُدَاءَةِ بِالعِلمِ قَبلَ القَولِ والعَملِ، وهَذَا دَليلٌ أثرِيٌّ يدلُّ عَلَىٰ أنَّ الإنسَان يَعلَمُ أوَّلًا ثُمَّ يعمَلُ ثَانيًا، لابُدَّ منَ العِلمِ أوَّلًا ثُمَّ يَأتِي العَملُ.

وَأمَّا الدَّلِيلُ العَقْلِيُّ: فهُوَ أنَّ القَولَ أوِ العَملَ لَا يكُونُ صَحِيحًا مَقبُولًا حتَّىٰ يكُونَ عَلَىٰ وَفْقِ الشرِيعَةِ، عَلَىٰ وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ رسُولُ اللهِ ﷺ، ولَا يُمكِنُ أنْ يَعْلَمَ الإنسَانُ أنَّ عمَلَهُ عَلَىٰ وَفْقِ الشرِيعَةِ إلَّا بالعِلمِ، فمِنْ أينَ لَهُ أنْ يعلَمَ أنَّ مَا أَتَىٰ بِهِ مِنْ أمْرٍ هُوَ عَلَىٰ وَفْقِ الشرِيعَةِ؟ لَا يُمكنُ أنْ يكُونَ ذَلكَ كَذلكَ حَتَّىٰ يكُونَ عَالِمًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولِ ﷺ.

والإنسَانُ وإنْ كانَ يعلَمُ بفِطرَتِهِ أنَّ اللهَ إلهٌ واحِدٌ إلَّا أنهُ يأتِي بأمُورٍ قَد تُخالِفُ هَذَا الذِي يَعلمُهُ، ولَا يُمكنُ أنْ يأتِي بِمَا أوجَبَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- عَليهِ مِن تَوحِيدِهِ ونَفْي الشرِيكِ عَنهُ إلَّا بِمعرِفةِ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ مِن ذَلكَ، مِن مَعرِفَتهِ تعَالَىٰ بأسمَائِهِ وصِفاتِهِ، وإخلَاصِ العِبادَةِ لوَجهِهِ الكَريم، ومَا ورَاءَ ذَلكَ مِنَ التَّفصيلِ ممَّا فصَّلَهُ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- فِي الكِتابِ، وعَلَىٰ لسَانِ النَّبيِّ ﷺ فِي الوَحي الثَّانِي، وهيَ سُنَّةُ النَّبيِّ ﷺ.

اللهُ تعَالَىٰ لكمَالِ ألوهِيتِهِ فَرَضَ كيفِيَّةَ العِبادَةِ ولَمْ يأذَنْ لعِبادِهِ أنْ يَعبُدوهُ بِمَا يَشاءُونَ، وإنمَا جعَلَ العبَادَةَ توقيفيَّةً، فَليسَ لأحَدٍ أنْ يعبدَ اللهَ إلَّا بمَا شَرَعهُ، بل إنَّ الدِّينَ كُلَّهُ يَدورُ عَلَىٰ هذَينِ القُطبَيْنِ: «**ألا يُعبدَ إلَّا اللهُ وألَّا يُعبَدَ اللهُ إلَّا بمَا شَرَعهُ**»، هَذَا هوَ الدِّينُ.

وقَد قَالَ الرسُولُ ﷺ فِي أعظَمِ أركَانِ الإسْلامِ بَعدَ الشَّهادَتَينِ: «**صَلُّوا كمَا رأيتُمُونِي أصَلِّي**»[(١)]. أخرجَهُ البخَاريُّ فِي الصَّحيحِ.

وقَالَ ﷺ فِي حَجَّةِ الوَداعِ: «**خُذُوا عَنِّي مَناسِككُمْ**»[(٢)]. وهَذَا أخرجَهُ مُسلِمٌ فِي صَحيحِهِ.

فَلا يُمكِنُ أنْ يَأْتِيَ العَبدُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إلَّا بالعِلمِ بِهِ، وَلا يَكُونُ ذَلكَ بِالعِلمِ بِهِ عِلمًا مُجمَلًا لا يكشِفُ حَقيقَةَ مَا أمرَ اللهُ بهِ، ومَنْ توقَّفَ عندَ حُدودِ العِلمِ المُجمَلِ تورَّطَ فِي المَعصِيَةِ تَورُّطًا، بَل اقتحَمَ الشِّركَ اقتِحَامًا، الذِي يتوقَّفُ عِندَ حُدودِ العِلمِ المُجمَلِ، عِندَ حُدودِ المَعرِفَةِ بالتَّوحيدِ مُجملًا مِن غَيرِ تَفصيلٍ، وعِندَ مَعرفَةِ مَا نَهىٰ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- عنهُ منَ الشِّركِ مُجمَلًا مِن غَيرِ تَفصيلٍ لابدَّ أنْ يتَورَّطَ فِي الشِّركِ تورُّطًا، ولابدَّ أنْ يقتَحِمَ

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

المَعصيةَ اقتِحَامًا.

قالَ الشَّيخُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- : «وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالمَسْأَلَةِ الأُولَى، وَهِيَ: مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ والشِّرْكِ؛ أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ، وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ، وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَلَمْ يَسْأَلْ».

أَقُولُ: فخَالفَ كَثيرٌ منَ الناسِ لأجلِ ذَلكَ سَبيلَ المُوحِّدِينَ، وسَلكَ كَثيرٌ مِن النَّاسِ سَبيلَ المُشرِكينَ.

وقالَ الشَّيخُ: «وَعَرَفَ: أَنَّ الله حَرَّمَ الرِّبَا، وَبَاعَ وَاشْتَرَىٰ وَلَمْ يَسْأَلْ».

فأَقُولُ: تَورَّطَ كَثيرٌ منَ الناسِ في الرِّبَا تَورُّطًا، وفي المُعامَلاتِ المُحرَّمةِ، وأكْلِ أموَالِ الناسِ بالبَاطِلِ، لأجلِ عدَمِ سُؤالِهم عَن حُدودِ مَا فَرَضَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَى- عَليهِم في مِثلِ هذِهِ المُعَامَلاتِ.

وقَالَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَعَرَفَ: تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَجَوَازَ الأَكْلِ بَالمَعْرُوفِ؛ وَيَتَوَلَّىٰ مَالَ اليَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ».

فَأَقُولُ: فأكْلُ مالِ اليَتيمِ عَلَى هَذَا النحوِ أمرٌ مَشهودٌ واقِعٌ، فأكَلَ كَثيرٌ منَ الناسِ مِمَّنْ تولَّى مالَ اليَتيمِ، أكَلَ مالَ اليَتيمِ، وظلَمَ بَعضُهُمْ نَفسَهُ بتَحريمِ مَا يَحِلُّ لهُ أكلُهُ بِالمَعرُوفِ، وكلُّ ذَلكَ لأنَّهُ لَمْ يَسألْ عمَّا أوجَبَهُ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَى- عَليهِ.

فأولُ واجِبٍ، كمَا قالَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحوَ مَا أمرَنَا اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَى- بهِ مِن أمرٍ أنْ نَعلَمَهُ، وإلَّا فَكيفَ نَلتزِمُهُ؟!، أَمَرَنَا اللهُ ربُّ العَالَمِينَ بأمُورٍ لا يُمكنُ أنْ نأتِيَ بِهذِهِ الأمُورِ إلَّا إذَا عَلمنَاهَا، وإلَّا فكَيفَ نلتَزِمُ بِهَا، فهَذَا أولُ واجِبٍ نحوَ مَا أمرَنَا اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَى- بِهِ.

فالذِي وقَعَ منَ المُخالَفَةِ لِمَا أمَرَ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- بِهِ وقَعَ مِن عدَمِ العِلمِ بمَا أمَرَ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- بِهِ، أعظَمُ مَا أمَرَ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- بِهِ التَّوحِيدُ، وهوَ إفرَادُ اللهِ بالعِبادَةِ؛ أَي: أنْ تَعبدَ اللهَ وَحدَهُ لا تُشرِكُ بِهِ شَيئًا، لا تُشرِكُ بِهِ نَبيًّا مُرسلًا، ولا مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا مَلِكًا، ولا أحَدًا مِنَ الخَلقِ، بَل تُفرِدُهُ وَحدَهُ بالعِبادَةِ محَبةً، وتَعظِيمًا، رَغبةً، ورَهْبةً.

وهَذَا هُوَ التوحِيدُ الذِي بُعثَتِ الرسُلُ لتَحقِيقِهِ، وهُو الذِي حصَلَ بِهِ الإخلَالُ مِنْ أقوَامِهِم، فَأُولئك الأَقوَامُ لَمْ يكُونُوا مُنكِرِينَ أنَّ اللهَ هُو الذِي خَلقَ السَّمواتِ والأرضَ، وهُو الذِي خَلَقَهُمْ، وهُو الذِي خَلقَ آلِهَتَهُمُ التِي يُشرِكُونَ بها، لَمْ يكُونُوا مُنكِرِينَ شَيئًا مِن ذَلكَ، وإنَّما كانُوا مُقرِّين بأنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- هُو الخَلَّاقُ العَظيمُ، وهوَ الرزَّاقُ الكَريمُ، وهوَ الذِي يُدبِّرُ الأمرَ ﷻ، ومَعَ ذَلكَ كانُوا مُشرِكينَ كَافرينَ؛ لأنَّ الذِي وقَعَ فِيهِ الإخلالُ هوَ صَرفُ العِبادَةِ لغيرِ اللهِ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ-، هَذَا هُوَ الذِي وقَعَ فِيهِ الإخلَالُ مِن هَؤُلاءِ الأقوَامِ عندَمَا دَعاهُمُ الرسُلُ إلَىٰ عِبادَةِ اللهِ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- وَحدَهُ.

التَّوحِيدُ بِالمَعنَىٰ الأعَمِّ هُوَ: إفرَادُ اللهِ ﷻ بمَا يختَصُّ بِهِ، وأعظَمُ مَا نَهىٰ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- عَنهُ الشِّركُ: وهُو دَعوةُ غَيرِهِ تعَالَىٰ مَعهُ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦].

وَالحاصِلُ: أنَّ العَبدَ يَجبُ عَليهِ عِلمُ ما أمَرَهُ اللهُ تعَالَىٰ بِهِ، فهذِهِ هيَ المَرتبَةُ الأولَىٰ مِنَ المَرَاتِبِ السَّبعِ مِن مَراتِبِ واجِبِنَا نَحوَ مَا أمرَنَا اللهُ بِهِ.

❋ ❋ ❋

* المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: مَحَبَّةُ مَا أَنْزَلَ الله، وَكُفْرُ مَنْ كَرِهَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٩].

فَأَكْثَرُ النَّاسِ: لَمْ يُحِبَّ الرَّسُولَ، بَلْ أَبْغَضَهُ، وَأَبْغَضَ مَا جَاءَ بِهِ، وَلَو عَرَفَ أَنَّ الله أَنْزَلَهُ.

الشــرح

وأمَّا المَرتبةُ الثانِيةُ: فهيَ محبةُ مَا أمرَنَا اللهُ بِهِ، إذَا عَلمْتَ مَا أمرَكَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بِهِ، وهَذَا وَاجبٌ عَليكَ نَحوَ مَا أمَرَكَ بِهِ سُبحَانَهُ؛ فقَد وَجبَ عَليكَ أن تُحبَّهُ، هَذَا وَاجبٌ عَلَىٰ العَبدِ أن يُحبَّ مَا أمرَهُ اللهُ تعَالَىٰ بِهِ، فإذَا لَم يُحِبَّهُ فَقدْ أخَلَّ بِهَذَا الواجِبِ الكَبِيرِ، فيَجِبُ عَلينَا أنْ نَعلَمَ مَا أمَرَنَا اللهُ بِهِ، وَأنْ نُحبَّ مَا أمرَنَا اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بِهِ.

فهناك مَنْ يَعرِفُ أنَّ الوَحيَ الذِي أنزَلَهُ اللهُ تعَالَىٰ عَلَىٰ رسُولِهِ حَقٌّ، ولكِنَّهُ يُبغِضُهُ ولا يُحِبُّهُ، ويَعلمُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ هُو رسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدقًا ولِكنَّهُ يُبغِضُهُ ولَا يُحبُّهُ ﷺ.

وقَد بيَّنَ اللهُ تعَالَىٰ حالَ الكَافرينَ الذِينَ بَاءُوا بِالانتِكَاسِ والخِذْلانِ وبَطَلَت أعمَالُهُمْ لكُرْهِهِم مَا أنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبيِّهِ ﷺ؛ قال تعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٨-٩].

فَالذِينَ كَفَرُوا بِربِّهِم ونَصَرُوا البَاطِلَ هُم فِي تَعْسٍ؛ أي: فِي انتِكاسٍ مِن أمرِهِمْ وخِذْلانٍ.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أبطَلَ أعمَالَهُمُ التِي يكِيدُونَ بِهَا الحَقَّ، فرجَعَ كَيدُهُم فِي نُحُورِهِم، وبَطَلَتْ أعمَالُهُمُ التِي يزعُمُونَ أنَّهُم يُرِيدُونَ بِهَا وَجهَ اللهِ.

وذَلكَ الإِضلالُ والتَّعْسُ للَّذِينَ كَفَرُوا إنَّما وقعَ بسَببِ أنَّهُم كَرِهُوا مَا أنزَلَ اللهُ مِنَ القُرآنِ الذِي أنزَلَهُ اللهُ صَلاحًا لِلعِبادِ وفَلاحًا لَهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوهُ، بَلْ أبغَضُوهُ وكَرِهُوهُ، فَأحبَطَ أعمالَهُمْ.

بَل أخبَرَ تعَالَىٰ عَن حَالةِ المُرتدِّينَ عَنِ الهُدىٰ والإيمَانِ عَلَىٰ أعقَابِهِمْ إلَىٰ الضَّلالِ والكُفرَانِ، وذَلكَ أنَّهُم قَد تبيَّنَ لَهُمُ الهُدَىٰ فزَهِدُوا فيهِ ورَفضُوهُ، و﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ [محمد:٢٦]، مِنَ المُبارِزِينَ بالعَداوَةِ للهِ ولِرسُولِهِ ﷺ: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ أي: فِي الذِي يُوافقُ أهواءَهُم فكَانَتْ عَاقبَتُهُم مَا ذَكرهُ اللهُ تعَالَىٰ فِي كتَابِهِ العَظيمِ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد:٢٥].

هَؤلاءِ الذِينَ ارتدُّوا عَلَىٰ أدبارِهِمْ مِن بَعدِ مَا تَبيَّنَ لهُمُ الهُدَىٰ، مَا الذِي جعلَهُم مُرتَكسِينَ فِي هذِهِ الحَمْأَةِ؟

قالَ ربُّنَا -تَبارَكَ وتعَالَىٰ-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:٢٦-٢٨].

فلابدَّ مِن حُبِّ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ حُبًّا خَالصًا، كَمَا أنهُ يجِبُ عَلينَا أن نُحِبَّ النبيَّ ﷺ الذِي بلَّغنَا أمْرَ اللهَّ تعَالَىٰ؛ أن نُحبَّهُ أكثَرَ ممَّا نُحبُّ أنفُسَنَا التِي بَينَ جُنوبِنَا، وسَيأتِي نَفيُ الإيمَانِ عمَّن لَم يُحِبَّ النبيَّ ﷺ هذِهِ المَحبَّةَ، فقَدْ أقسَمَ اللهُ -تَبارَكَ وتعَالَىٰ- بنَفسِهِ الكَريمَةِ المُقدَّسَةِ أنهُ لا يُؤمِنُ أحدٌ حتَّىٰ يُحكِّمَ الرسُولَ ﷺ فِي جَميعِ الأمُورِ.

فَما حَكَمَ بِهِ فهُوَ الحَقُّ الذِي يَجِبُ الانقيادُ لَهُ ظَاهرًا وبَاطنًا، وإذَا حكَّمُوهُ فيَجبُ عَليهِم أنْ يُطيعُوهُ فِي بواطِنِهِمْ، ولا يَجحدُوا ذلكَ الأمرَ بَاطنًا، ولا يَجدُوا فِي أنفُسِهم حَرَجًا ممَّا حَكَم بِهِ، فيجِبُ عَليهِم أن يَنقادُوا لهُ فِي الظاهِرِ والباطِنِ عَلَىٰ السَّواءِ، وأن يُسلِّموا ذَلكَ تَسليمًا كُليًّا مِن غَيرِ مُمانَعةٍ ولا مُدافعةٍ ولا مُنازَعةٍ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

وهَذَا النَّظمُ القُرآنِيُّ الشريفُ يدلُّكَ دَلالَةً عَظيمَةً جدًّا لو تَدبَّرتَهُ وتأملْتَ فِيهِ ونَظرتَ فِي مَرامِيهِ، يدُلُّكَ عَلَىٰ عِظَمِ هَذَا الأمرِ؛ وهُو أنهُ يَنبغِي عَليكَ إذَا جاءَكَ الحُكمُ، أوْ إذَا جَاءَكَ الأمرُ منَ النبيِّ ﷺ أن تكُونَ مُسلِّمًا عَلَىٰ هَذَا النَّحوِ الذِي ذكَرهُ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ-.

وتَأملْ فِي صَدرِ الآيةِ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، فأَقسَمَ بذَاتِهِ الشريفَةِ المُقدَّسَةِ، أَقسَمَ عَلَىٰ هَذَا الأمرِ الكَبيرِ أنهُ لا يكُونُ مُؤمنًا مَن لَمْ يُحكِّمِ النَّبيَّ ﷺ فيمَا شَجَرَ بَينَهُ وبَينَ الخَلقِ فِي الأرضِ، ثُمَّ لا يجِدُ فِي نَفسِهِ حَرَجًا ممَّا قضَىٰ بِهِ الرسُولُ ﷺ وحتَّىٰ يُسلِّمَ تَسلِيمًا.

لا يكفِي أنْ يعرِفَ الإنسَانُ أنَّ مُحمَّدًا رسُولُ اللهِ، لَا يَكفِي هَذَا حَتىٰ يُحبَّهُ ﷺ، وحَتَّىٰ يُحِبَّ مَا جاءَ بِهِ الرسُولُ ﷺ، وحتَّىٰ يُواليَهُ ويَتَّبِعَهُ ويُعادِي أعداءَهُ، وقَد كانَ اليَهودُ يَعرفُونَ النبيَّ ﷺ، بصِفتِهِ وحِليَتِهِ، وكانُوا مُتحققِّينَ مِن صِدقِهِ، وصِدقِ مَا جاءَ بِهِ ﷺ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤].

إذَنْ؛ مَا هُو مَحلُّ النِّزاعِ؟

هُم يَعلمُونَ أنهُ رسُولُ اللهَّ حقًّا وصِدقًا، بصِفَتِهِ وحِليَتِهِ وشِيَتِهِ ﷺ، ويَعلمُونَ أنَّ مَا جاءَ بِهِ منزَّلٌ مِن عِندِ رَبِّهِ حقًّا وصِدقًا، يعلمُونَ ذَلكَ ويتيقَّنُونَ مِنهُ، ومعَ ذَلكَ فهُمْ كافِرُونَ بِهِ ﷺ، وبمَا أنزلَهُ اللهُّ عَليهِ؛ لأنَّهم حسدُوهُ وأبغضُوهُ، وأبغضُوا مَا جَاءَ بِهِ ﷺ، وكَانَ هَذَا مُفضِيًا بِهم إلَىٰ الكُفرِ الذِي هُو دَامِغٌ لَهُمْ إلَىٰ يَومِ الدِّينِ.

بَل إنَّ رُءوسَ الكُفرِ مِن قَومِهِ ﷺ لَمْ يشُكُّوا فِي صِدقِهِ ﷺ ولَا فِي أمَانتِهِ، وأنهُ لَمْ يكُنْ ليَدَعَ الكذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ ويكذِبَ عَلَىٰ رَبِّ النَّاسِ ﷺ، ومعَ ذَلكَ عَادَوهُ وجَحدُوا مَا جاءَ بِهِ، فقَالَ رَبُّنا -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- فِي شَأنِهِم: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام:٣٣]، هُمْ يَعلمُونَ صِدقَ النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه لأَبِي جَهلٍ -وكَانَ خَالَهُ-: أي خالُ! هَل كُنتُم تتَّهِمُون مُحَمَّدًا بِالكَذبِ قَبْلَ أَنْ يَقولَ مَقَالَتَهُ الَّتِي قَالَهَا؟! قَالَ أَبُو جَهْلٍ -لَعَنَهُ الله تَعَالَىٰ-: يَا ابن أَخِي، لَقَد كَانَ مُحَمَّدٌ فِينَا -وَهُو شَابٌّ- يُدعَىٰ الأَمِين، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا قَطُّ، فَلَمَّا وَخَطَهُ الشيبُ لَم يكن لِيكذبَ عَلَىٰ الله! قَالَ: يَا خالُ فَلِمَ لَا تَتَّبِعُونَهُ؟ قَالَ: يَا ابن أَخِي تَنَازعنَا نَحن وَبَنُو هَاشِم الشَّرَفَ، فَأطعَمُوا وَأَطعَمنَا، وَسَقَوا وَسَقَينَا، وَأَجَارُوا وَأَجَرنَا، فَلَمَّا تَجَاثَينَا عَلَىٰ الرُّكَبِ، وَكُنَّا كَفَرَسَي رِهَانٍ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ، فَمَتَىٰ نُدرِكُ هَذِهِ؟(١).

فَمَعرِفتُهُ بصدقِهِ فِي أَنَّه رَسُولُ الله لَم تَنفَعْهُ؛ لأَنَّه أبغضه وحسده، وَلَم يُحِبَّه فلم يقبل ما جاء به من عِند رَبِّه من الهُدَىٰ والخَيرِ، فَكَانَ لبُغضِهِ للرسولِ ﷺ من الكَافِرين.

وَهَذَا أُميةُ بنُ أبي الصَّلتِ كَانَ ينتظِرُهُ يَومًا بيومٍ، وَعِلْمُهُ عنده قبل مبعثِهِ، وقصَّتُهُ

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٦٥).

مَع أبي سفيان لَمَّا سَافَرَا مَعًا مَعرُوفَةٌ، وَإِخْبَارُهُ برسولِ الله ﷺ مُستَفِيضٌ، ثُمَّ لَمَّا تيقَّنه وَعَرَفَ صِدقَهُ قَالَ: لَا أُومِنُ بنبيٍّ مِن غَيرِ ثَقِيفٍ أَبَدًا؟[١].

فَمَعرفتُهُ بِأَنَّه رَسولُ الله لَم تنفعه لأَنَّه لَم يُحِبَّهﷺ، وَلَمْ يُحِبَّ مَا جَاء بِهِ مِن عِندِ رَبِّهِ مِن البَيِّنَاتِ والهُدَىٰ.

هذِهِ هي المَرتَبةُ الثانيةُ: عَرفُوا صدقَ النبيِّ ﷺ، وأَنَّهُ غَيرُ كاذِبٍ فيمَا يَقولُ، ولكِنْ عانَدُوا وجحَدُوا بالمَعرِفةِ، ولَم يُغنِ عَنهُم مَا عَرفُوا شَيئًا.

فإذَا قَالَ إِنسَانٌ: إنَّهُ لا ينظُرُ فيمَا جاءَ بِهِ الرسُولُ، ولا يُحِبُّ الرسُولَ ولا يُبغضُهُ، ولَا يوالِيهِ ولَا يُعادِيهِ، بَل هُو مُعرِضٌ عَن مُتابعَتِهِ ومُعادَاتِهِ.

فَمَا حُكمُ هَذَا؟

والجواب: هذَا كَفَرَ كُفْرَ الإعرَاضِ، هَذَا هُو كُفرُ الإعرَاضِ، بَل لَيسَ عِندَهُ إيمَانٌ أصلًا لِخُلوِّ قَلبِهِ مِنهُ.

فلابُدَّ مِن مَحبَّةِ اللهَّ تعَالَىٰ، ومَحبَّةِ مَا أنزَلَ، ومَحبَّةِ الرسُولِ ﷺ، ومَحبَّةِ مَا جاءَ بِهِ ﷺ، ولابُدَّ مِن تقديم مَحبَّةِ اللهَّ، ومَحبَّةِ الرسُولِ ﷺ، والجِهادِ فِي سَبيلِهِ تعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ المَحابِّ كمَا مرَّ ذِكرُ ذَلكَ فِي قَولِ ربِّنا -تَبَارك وتعَالَىٰ-: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ [التوبة:٢٤]

وتَأَمَّلْ فِي قَولِهِ تعَالَىٰ: (أحبَّ) فالنِّزاعُ فِي الأحبيَّةِ لا فِي الحِبيَّةِ، إذَا أُخِذَ التفضيلُ عَلَىٰ أَصْلِهِ، فإنَّهُ يدُلُّ عَلَىٰ أنَّ المُفضَّلَ والمُفضَّلَ عَليهِ قَد اشتَرَكَا فِي أصلِ الصفَةِ، تَقولُ: زَيدٌ

(١) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٢٢).

أحَبُّ إلَيَّ مِن عَمرٍو، فتُثبِتُ المَحبة لكِلَيهِمَا، ولَكنْ تُثبِتُ المَحبَّةَ الزَّائدَةَ للمُفضَّلِ.

فاللهُ -تَبَارك وتعَالَىٰ- يقُولُ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فَلَا حَرجَ أنْ تُحبَّ هذِهِ المذكُورَاتِ، ولَكنَّ الحرَجَ كُلَّ الحَرجِ فِي أن تُقدِّمَ مَحبةَ شَيءٍ مِن تِلكَ المَذكُوراتِ عَلَىٰ محبةِ اللهِ ومَحبةِ الرسُولِ ﷺ.

فالنِّزاعُ -كمَا تَرَىٰ- فِي الأَحَبيَّةِ لَا فِي الحِبيَّةِ.

وقَد بَيَّنَ سُبحانهُ فِي آيةِ الامتحَانِ أنَّ كلَّ منِ ادَّعَىٰ مَحبةَ اللهِ ولَيسَ هُو عَلَىٰ الطرِيقَةِ المُحمَّديَّةِ النبوِيَّةِ فإنَّهُ كَاذبٌ فِي نَفسِ الأمْرِ، حتَّىٰ يتَّبعَ الشرعَ النَّبويَّ فِي جَميعِ الأقوَالِ والأفعَالِ، قالَ تعَالَىٰ فِي آيةِ الامتحَانِ والاختبَارِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، وذَلكَ لأنَّ أقوَامًا ادَّعَوا أنَّهم يُحبونَ اللهَ تعَالَىٰ، فأنزلَ اللهُ ربُّ العَالمِينَ هذِهِ الآيَةَ اختِبارًا وابتِلاءً وامتِحَانًا، فهذِهِ الآيةُ هِي المِيزانُ الذِي يُعرَفُ بِهِ مَن أحبَّ اللهَ حَقيقَةً، ومَن ادَّعَىٰ ذَلكَ دَعوَىٰ مُجرَّدَةً.

فعَلامةُ مَحبةِ اللهِ اتِّباعُ رسُولِ اللهِ ﷺ، الذِي جَعلَ اللهُ مُتابَعتَهُ، وجَميعَ مَا يَدعُو إليهِ طريقًا إلَىٰ مَحبتِهِ ورِضوانِهِ سُبحانَهُ، فلا تُنالُ محبَّةُ اللهِ ورِضوانُهُ وثوَابُهُ إلَّا بتَصدِيقِ ما جَاءَ به الرَّسولُ ﷺ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وامتِثَالِ أمرِهِمَا، واجتِنابِ نَهيِهمَا، فمَنْ فعَلَ ذَلكَ أحبَّهُ اللهُ وجزَاهُ جزاءَ المُحبِّينَ، وغَفَرَ لهُ ذُنوبَهُ، وسَتَرَ عَليهِ عُيوبَهُ.

وَكأنَّهُ قِيلَ: ومعَ ذَلكَ فَمَا حَقيقةُ اتِّباعِ الرسُولِ ومَا صِفتُهَا؟

فأجَابَ بقَولِهِ تعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ ﴾ [آل عمران:٣٢]؛ يعنِي: بامتِثالِ الأمرِ، واجتِنابِ النَّهي، وتَصدِيقِ الخَبَرِ، فإنْ تولَّوا عَن ذَلِكَ فهُوَ الكُفرُ، واللهُ لَا يُحِبُّ الكافِرينَ.

ورَسولُ اللهِ ﷺ هُو رسُولُ اللهِ إلَىٰ جَميعِ الثَّقَلَينِ الجِنِّ والإنْسِ، ولَو كَانَ الأنبِيَاءُ، بلِ المُرسلُونَ، بل أولُو العَزمِ مِنهُم فِي زمَانِهِ ﷺ، لَمَا وسِعهُم إلا اتبَاعُهُ ﷺ، ومَا وسِعَهُم إلا أنْ يَدخُلوا فِي طاعَتِهِ، وأنْ يتَّبعُوا شَريعتَهُ، وقَد أخذَ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- عَليهِم جَميعًا الميثَاقَ بذَلكَ.

فلابُدَّ مِن محبَّةِ الرسُولِ ﷺ، ومَحبةِ مَا جاءَ بِهِ والرِّضَا بِهِ، والتسلِيمِ لَهُ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦].

وَالنَّبيُّ ﷺ أولَىٰ بكُلِّ مُؤمِنٍ مِن نَفسِهِ، قَالَ ﷺ: «**مَا مِن مُؤمِنٍ إلا وَأنَا أولَىٰ الناسِ بِهِ فِي الدنيَا والآخِرةِ، اقرءُوا إنْ شِئتُم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾** [الأحزاب:٦]»(١). أخرجَهُ البُخارِيُّ.

وأخرجَ مُسلِمٌ فِي صَحيحِهِ عَن النبيِّ ﷺ: «**أنَا أَولَىٰ بكلِّ مُؤمنٍ مِن نَفسِهِ**»(٢).

وفِي الصَّحِيحَينِ عَن رسُولِ اللهِ ﷺ: «**لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ؛ حتَّىٰ أكُونَ أحَبَّ إلَيهِ مِن وَالِدِهِ، ووَلدِهِ، والنَّاسِ أجمَعِينَ**»(٣).

(١) **حديث صحيح**: أخرجه البخاري (٤٧٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) **حديث صحيح**: أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٣) **حديث صحيح**: أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فذكَرَ الأُصُولَ فِي قَولِهِ ﷺ: «مِن والِدِهِ»، وذكَرَ الفُروعَ فِي قولِهِ ﷺ: «ووَلَدِهِ» وذكَرَ الحَواشِيَ، كالزَّوجَةِ والإخوَةِ والأرحَامِ والأصحَابِ والرفَقَاءِ ومَا أشبَهَ فِي قَولِهِ ﷺ: «والناسِ أجمَعينَ».

لا يؤمِنُ أحدُكُم حتَّىٰ يكُونَ النَّبيُّ ﷺ أحبَّ إليهِ مِن والِدِه ووَلَدِهِ والناسِ أجمَعِينَ.

وعندَ مُسلِم: «**والذِي نَفسِي بيَدِهِ**»، يُقسِمُ النبيُّ ﷺ: «**لا يُؤمنُ أحدُكُم حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليهِ مِن والِدِهِ وَولَدِهِ**».

وأخرَجَ البخَارِيُّ عَن عَبدِ اللهِ بنِ هشَامٍ قَالَ: كُنَّا معَ النَّبيِّ ﷺ وهُو آخِذٌ بيَدِ عُمرَ بنِ الخطَّابِ، فقَالَ لَهُ عُمرُ: يَا رسُولَ اللهِ، لأنتَ أحبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلا مِن نَفسِي، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**لَا، والذِي نفسِي بيَدِهِ حتَّىٰ أكُونَ أحبَّ إلَيكَ مِن نَفسِكَ**»، فقَالَ عُمرُ: فإنَّهُ الآنَ واللهِ لأنتَ أحبُّ إلَيَّ مِن نَفسِي. فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**الآنَ يَا عُمرُ**»(١).

فعَلَىٰ كُل مُسلِمٍ أنْ يعرِضَ نَفسَهُ عَلَىٰ هَذَا القَانونِ، هَل يُحِبُّ النبيَّ ﷺ أكثَرَ مِن والِدِهِ، ووَلَدِهِ، والنَّاسِ أجمَعِينَ، ومِن نَفسِهِ التِي بَينَ جَنبَيهِ؟

فإنْ كانَ ذَلكَ كذَلكَ فبِهَا ونِعمَتُ عَينٍ، وإنْ لَمْ يكُنْ فعَليهِ أنْ يُراجعَ إيمَانهُ لقَسَمِ النبيِّ ﷺ.

فمَحبةُ مَا أوجَبَ اللهُ عَلينَا فرضَهَا اللهُ عَلينَا، فقَدْ فرَضَ اللهُ عَليكَ أن تُحبَّ مَا أمرَكَ اللهُ بِهِ، لَا أنْ تأتِيَ مَا أمرَكَ اللهُ ربُّ العَالَمِينَ بِهِ مِن أمرٍ وأنتَ كارِهٌ لأمْرِ اللهِ، هَذَا لا يَجوزُ مُطلقًا، بل هَذَا محرَّمٌ تحرِيمًا كَبيرًا، فيجِبُ عَليكَ أن تعلَمَ مَا أمرَكَ اللهُ بِهِ، وأنْ تُحبَّ

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

مَا أمرَكَ اللهُ -تبَارِكَ وتعَالَىٰ- بِهِ، لابدَّ مِنَ العِلمِ بمَا أوجَبَ اللهُ عَلينَا، ولابدَّ مِن محَبَّةِ اللهِ الذِي أوجَبَ عَلينَا مَا أوجَبَهُ، ولابدَّ مِن محبَّةِ الرسُولِ ﷺ، ومحبَّةِ مَا بلَّغهُ عَن ربِّهِ تعَالَىٰ.

فَهذِهِ هيَ المَرتبَةُ الثانِيةُ مِن مرَاتِبِ واجِبنَا نَحوَ مَا أمَرنَا اللهُ بِهِ.



* الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَى الفِعْلِ؛ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: عَرَفَ وَأَحَبَّ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْزِمْ؛ خَوْفًا مِن تَغَيُّرِ دُنْيَاهُ.

الشـــرح

وأمَّا المَرتبةُ الثالِثةُ: فهيَ العَزمُ عَلَىٰ الفِعلِ، فكَثيرٌ منَ الناسِ عرَفَ وأحَبَّ ولكِنْ لَمْ يعزِمْ خَوفًا مِن تغيُّرِ دُنيَاهُ.

وهذِهِ المَرحلةُ القَلقَةُ المُضطرِبةُ المُضنِيَةُ فيهَا كَثيرٌ جدًّا منَ المُسلِمينَ؛ فإنَّهُم عَرَفُوا مَا أمرَهُمُ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- بِهِ، ومَا أوجَبَهُ عَليهِم وأحَبُّوا ذَلِكَ، ولكنَّهُمْ تخلَّفُوا عَنِ العَزمِ عَلَىٰ الفِعلِ بِمَا أمَرَهُمُ اللهُ ربُّ العَالَمِينَ، فوقَفُوا مُتَرَدِّدينَ؛ لأنَّهم إذَا عزَمُوا ففَعلُوا وأَتَوا مَا أمرَ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- بِهِ أضرَّ ذَلكَ بدُنياهُمْ، فلأجْلِ ذَلكَ تَجِدُهُم يتَردَّدونَ واقِفينَ غَيرَ عازِمينَ عندَ حُدودِ المَرتبَةِ الثَّالِثَةِ، يعلَمُونَ مَا أمرَ اللهُ بِهِ، ويُحِبُّونَ مَا أمرَ اللهُ بِهِ، ولكنَّهُم لَا يعزِمُونَ عَلَىٰ فِعلِ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ.

فيَجِبُ عَلَىٰ العَبدِ أنْ يَعرِفَ أمْرَ اللهِ، وأنْ يُحِبَّهُ، وأنْ يَعزِمَ عَلَىٰ العَملِ بِهِ، ويَدَعَ الفُتُورَ والكَسَلَ وخَوفَ تغيُّرِ الدُّنيَا عِندَ امتِثالِ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ.

فِي الصَّحيحَينِ عَن أَبِي بَكرَةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قالَ: «**إذَا التَقَىٰ المُسلِمانِ بسَيفَيهِمَا فالقَاتِلُ والمَقتُولُ فِي النارِ**». قالَ: قُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقتُولِ؟ قالَ: «**إنهُ كانَ حَريصًا عَلَىٰ قَتلِ صَاحِبِهِ**»(١).

فهَذَا المَقتُولُ معَ أنهُ قُتِلَ وبرَقَتْ بَارِقَةُ السَّيفِ عَلَىٰ رَقَبتِهِ وتَحتَ عَينَيهِ، معَ أنهُ قُتِلَ

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

وذَاقَ مَسَّ القَتلِ وحَرَّهُ، وأزهَقَ القاتِلُ نفسَهُ، ومعَ ذَلكَ هُو فِي النارِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ رِعايَةً لنيَّةِ هَذَا المَقتُولِ الفَاسدَةِ، وأنهُ كانَ حَريصًا عَلَىٰ قَتلِ صَاحبِهِ نزَّلَهُ مَنزلَةَ القَاتِلِ سَواءً، فَقالَ النبيُّ ﷺ: «**فالقَاتلُ والمَقتُولُ فِي النَّارِ**»، قالَ: قُلتُ: فهَذَا القَاتلُ؛ فَمَا بَالُ المَقتُولِ؟! قَالَ: «**إنهُ كانَ حَريصًا عَلَىٰ قَتلِ صَاحِبِهِ**».

قَولُ أبِي بَكرَةَ رضي الله عنه: «هَذَا القَاتلُ»؛ يَعنِي: مَا يُقالُ فِي المُناظَراتِ؛ هَذَا تَسليمٌ، سَلَّمْنَا أنَّ القَاتلَ فِي النَّارِ، فَمَا بَالُ المَقتُولُ؟! كَيفَ يكُونُ فِي النَّارِ وهُوَ المَقتُولُ؟ فَقالَ ﷺ: «**إنهُ كَانُ حَريصًا عَلَىٰ قَتلِ صَاحِبِهِ**».

وفِي الصَّحِيحينِ عنْ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ فيمَا يَروي عَن ربِّهِ -تَبارَكَ وتعَالَىٰ- قالَ: «**إنَّ اللهَ كَتبَ الحَسَنَاتِ والسَّيئَاتِ ثُمَّ بيَّنَ ذَلكَ، فمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعمَلْهَا كَتبَهَا اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- عِندَهُ حسَنَةً كامِلةً، وإنْ هَمَّ بهَا فعَمِلهَا كَتبهَا اللهُ عَشْرَ حسَنَاتٍ إلَىٰ سَبعمِئَةِ ضِعفٍ إلَىٰ أضعَافٍ كَثيرَةٍ، وإنْ هَمَّ بسَيئَةٍ، فَلَمْ يَعمَلْهَا كَتبَهَا اللهُ تعَالَىٰ عندَهُ حَسنَةً كامِلةً، وإنْ هُمَّ بهَا فعَمِلهَا كَتبهَا اللهُ سَيئَةً وَاحِدَةً**»[1].

قالَ الحَسنُ رحمه الله: «رَحمَ اللهُ عَبدًا وقَفَ عِندَ هَمِّهِ؛ يعنِي: يتفَحَّصُهُ، فَإنْ كانَ للهِ مَضَىٰ، وإنْ كانَ لغَيرِ اللهِ تأخَّرَ»[2].

وشَرَحَ هَذَا بَعضُهُم فقَالَ: إذَا تحرَّكتِ النَّفسُ لعَملٍ منَ الأعمَالِ وهَمَّ بِهِ العَبدُ، وقَفَ أوَّلًا ونظَرَ: هَل هَذَا العَملُ مَقدُورٌ لَهُ أو غَيرُ مَقدُورٍ ولَا مُستَطاعٌ؟ يعنِي: هَل يَستطِيعُ أنْ يأتِيَ بِهَذَا العَملِ؟ وهَل هُو قَادرٌ عَليهِ ومُستطيعٌ لهُ أوْ لَا؟ فإنْ لَمْ يكُنْ مَقدُورًا

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥٨).

مُستطاعًا لَمْ يُقدِمْ عَليهِ أصلًا، وإنْ كانَ مَقدُورًا وقَفَ وَقفَةً أُخرَىٰ ونظَرَ: هَل فِعلُهُ خَيرٌ لهُ مِن تَركِهِ أوْ تَركُهُ خَيرٌ لهُ مِن فِعلِهِ؟ فإنْ كانَ الثَّانِي تَركَهُ ولَمْ يُقدِمْ عَليه، وإنْ كانَ الأولُ وقَفَ وقْفَةً ثَالثَةً ونَظَرَ: هَل البَاعِثُ عَليهِ إرادَةُ وجْهِ اللهِ تعَالَىٰ وثَوابِهِ؟ أوْ إرَادَةُ الجَاهِ والثَّناءِ والمَالِ منَ المَخلُوقِ؟ فإنْ كانَ الثَّانِي لَمْ يُقدِمْ عَليهِ، وإنْ أفضَىٰ بِهِ إلَىٰ مَطلُوبِهِ؛ لئلَّا تَعتَادَ النَّفسُ الشِّركَ ويَخفَّ عَليهَا العمَلُ لغَيرِ اللهِ، فبِقدْرِ مَا يَخفُّ عَليها ذَلكَ يثقُلُ عَليها العَملُ للهِ تعَالَىٰ حتَّىٰ يصِيرَ أثقَلَ شيءٍ عَليهَا.

الذِينَ يأكُلُونَ الحرَامَ لا يجِدونَ طَعمَ الحَلالِ، ولا يُحِسُّونَ بِهِ، وأمَّا الذينَ يعتَادُونَ الحلالَ ويجتَنبونَ الشبهَاتِ، فيجدُونَ للحرَامِ مسَاغًا مُرًّا غيرَ مألُوفٍ.

الإنسانُ إذَا اعتَادَ أمثَالَ هذِهِ الأمورِ، خفَّ عَلَىٰ نَفسِهِ العَملُ لغَيرِ اللهِ تعَالَىٰ، وبقدْرِ مَا يخِفُّ عَلَىٰ نَفسِهِ ذَلكَ يثقُلُ عَلَىٰ نَفسِهِ العمَلُ للهِ تعَالَىٰ حتَّىٰ يصيرَ أثقَلَ شَيءٍ عَليهِ، وإنْ كانَ الأوَّلُ منَ الأمرَينِ وقَفَ وقفَةً أخرَىٰ ونظَرَ: هَل هُو مُعانٌ عَليهِ ولهُ أعوَانٌ يساعِدُونَهُ ويَنصُرونَهُ؟ إذَا كانَ العمَلُ مُحتاجًا إلَىٰ ذَلكَ أوْ لَا؟ فإنْ لَمْ يَكُنْ لهُ أعوَانٌ أمسَكَ عَن هَذَا الأمْرِ، كمَا أمسَكَ النبيُّ ﷺ بأمرِ ربِّهِ عنِ القتَالِ جهَادًا فِي سَبيلِ اللهِ بمكَّةَ حتَّىٰ صارَ لَهُ شَوكةٌ وأنصَارٌ، وإنْ وجَدَ أنهُ مُعَانٌ عَليهِ فليُقدِمْ عَليهِ فإنَّهُ مَنصُورٌ، ولَا يفُوتُ النجَاحُ إلَّا مَنْ فوَّتَ خَصْلَةً مِنْ هذِهِ الخصَالِ، وإلَّا فمَعَ اجتِمَاعِ تِلكَ الخِصالِ لا يفُوتُهُ النجَاحُ بحَالٍ إنْ شاءَ اللهُ.

فهذِهِ أربَعُ مَقامَاتٍ يَحتَاجُ العَبدُ إلَىٰ مُحاسَبةِ نَفسِهِ عَليهِا قَبلَ العَملِ، فمَا كُلُّ مَا يُريدُهُ العَبدُ فعلَهُ يَكُونُ فِي استطَاعَتِهِ، ولا كُلُّ مَا يكُونُ فِي استطَاعَتِهِ يكُونُ فعلُهُ خَيرًا لَهُ مِن تَركِهِ، ولا كُلُّ مَا يكُونُ فِعلُهُ خَيرًا مِن تَركِهِ يفعَلُهُ للهِ خَالصًا، ولا كُلُّ مَا يفعَلُهُ يكُونُ مُعَانًا عَليهِ، فإذَا حاسَبَ نَفسَهُ عَلَىٰ ذَلكَ تَبيَّنَ لهُ مَا يُقدمُ عَليهِ، وَمَا يُحجِمُ عَنهُ، فيكُونُ

عَلَىٰ بَصيرَةٍ مِن طَرِيقِهِ، وعَلَىٰ وُضُوحٍ مِن منهَاجِهِ.

فلابُدَّ مِنْ عَقدِ القَلبِ عَلَىٰ فِعلِ مَا أمرَ اللهُ بهِ، هذِهِ مَرتبَةُ العَزمِ عَلَىٰ فِعلِ الأمْرِ الذِي أمرَهُ اللهُ -تَبَارك وتعَالَىٰ- بهِ، فَأْتَمَرَ بِهِ وأحبَّهُ وعَزَمَ عَلَىٰ فِعلِهِ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فَالعَزْمُ: عَقدُ القَلبِ عَلَىٰ إمضَاءِ الأمْرِ، يُقالُ: عَزمْتُ الأَمرَ وعَزَمتُ عَليهِ واعتَزَمْتُ، وقَد أَمَرَ اللهُ تعَالَىٰ بتَلَقِّي أوامِرِهِ بالعَزْمِ والجِدِّ، فقَالَ تعَالَىٰ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢] يعنِي: بِجِدٍّ واجتهَادٍ وعَزْمٍ، لا كَمَنْ يأخُذُ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ بتَردُّدٍ وفُتورٍ وتَوَانٍ.

والهَمُّ أوَّلُ الإرادَةِ، والهِمَّةُ نِهايَةُ الإرادَةِ، الهِمَّةُ أولُ العَزمِ، والعَزمُ صِدقُ الإرادَةِ واستجمَاعُهَا، والجِدُّ صِدقُ العَملِ وبَذلُ الجَهدِ فِيهِ، والنِّيَّةُ والإرَادةُ والقَصدُ والعَزمُ عِباراتٌ مُتوارِدَةٌ عَلَىٰ مَعنًىٰ وَاحِدٍ وهُوَ حالٌ للقَلبِ يكتنفُهُ أمرَانِ ويُحيطَانِ بِهِ: عِلمٌ وعَملٌ، العِلمُ يَقْدُمُهُ؛ لأَنَّهُ أصلُهُ وشَرطُهُ، والعَملُ يَتبَعُهُ، لأنهُ ثَمرَتُهُ وفرعُهُ، والعَزْمُ بينَهُمَا.

وقَد ذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ: «**كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: عَرَفَ وَأَحَبَّ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْزِمْ؛ خَوْفًا مِن تَغَيُّرِ دُنْيَاهُ**»، فنَعَىٰ الشيخُ عَلَىٰ أقوَامٍ عَرَفُوا الحَقَّ وأحبُّوهُ، ولَم يَعزِمُوا عَلَىٰ فِعلِهِ خَشيَةَ ذهَابِ الدنيَا؛ مِنَ الجَاهِ، والمَالِ، والمُلكِ، والسلطَانِ، ولَمَّا كانَ العَبدُ مَقطُوعًا، أحيَانًا عَن العَملِ الصَّالِحِ يَنويهِ ويَعزِمُ عَليهِ فيحَبِسُهُ عَنهُ حَابسٌ، ويقعُدُ بِهِ عَنهُ عُذرٌ فَقَد كُتِبَ لَهُ ثَوابُهُ.

رَوَىٰ البُخاريُّ عنْ أنسٍ رضي الله عنه قالَ: رَجعْنَا مِن غَزوَةِ تَبوكَ مَعَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقَالَ: «**إنَّ أقوَامًا خَلْفَنَا بالمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعبًا وَلا وَادِيًا إلَّا وهُم معَنَا؛ حَبسَهُمُ العُذْرُ**»[1].

(١) **حديث صحيح:** أخرجه البخاري (٤٤٢٣).

وَرَوَىٰ مُسلِمٌ عَن جَابرٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فقَالَ: «**إنَّ بالمَدِينَةِ لرِجَالًا مَا سِرتُمْ مَسِيرًا، وَلا قَطعتُم وادِيًا إلَّا كانُوا مَعكُم، حَبسَهُمُ المَرَضُ**».

وفِي رِوَايَةٍ: «**إلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الأجرِ**»[1].

فهَذَا بنِيَّتِهِمْ وبِعَزْمِهِمْ وعَقْدِ قُلوبِهِم مَعَ حُلولِ العُذرِ بِهِم، وعَدَمِ الاستطَاعَةِ مِنهُمْ، فآتَاهُم اللهُ -تبَارَكَ وتعَالَىٰ- الثَّوابَ؛ كالذِين وجدُوا النَّصَبَ والسَّفَرَ والمَشقَّةَ كَمَا قَالَ الرسُولُ ﷺ، فإذَا عَلِمَ العبدُ أمرَ اللهِ وأحبَّهُ فعَليهِ أنْ يعقِدَ القَلبَ عَلَىٰ فِعلِهِ؛ فهَذَا مِمَّا أوجبَهُ اللهُ عَليهِ نَحوَ مَا أمرَهُ اللهُ -تبَارَكَ وتعَالَىٰ- بِهِ، وهَذَا العَزمُ عَلَىٰ الفِعلِ هُو المَرتَبةُ الثالِثَةُ مِن مَرَاتِبِ مَا أوجَبَ اللهُ -تبَارَكَ وتعَالَىٰ- عَلينَا مِنَ الوَاجِبِ نحوَ مَا أمرَنَا اللهُ بِهِ.

* * *

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٩١١).

* الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: العَمَلُ؛ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: إِذَا عَزَمَ أَوْ عَمِلَ وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَن يُعَظِّمُهُ مِن شُيُوخٍ أَوْ غَيْرِهِم تَرَكَ العَمَلَ.

الشــرح

أمَّا المَرتبةُ الرَّابعةُ: فقدْ قَالَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَمَلُ؛ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: إِذَا عَزَمَ أَوْ عَمِلَ وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَن يُعَظِّمُهُ مِن شُيُوخٍ أَوْ غَيْرِهِم تَرَكَ العَمَلَ».

فَيأتِي بالعَملِ الذِي قدْ عَلِمَ أمرَ اللهِ فِيهِ وأحبَّهُ وعزَمَ عَليهِ يأتِي بِهِ، ولكنَّهُ بَعدَ أنْ يأتِي بِهِ يتغيَّرُ عَليهِ بعضُ مَن يُحبُّهُ مِن شُيوخِهِ، وبَعضُ الكُبَراءِ ممَّنْ يُعظِّمُهُم، فَحِينئذٍ يَتْرُكُ العَملَ.

العِلمُ بمَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ ﷺ مِن غَيرِ عَمَلٍ بِهِ لا يُؤدِّي إِلَىٰ النجَاةِ، بَل هُو حُجَّةٌ عَلَىٰ صَاحِبهِ، بَل هُو جَهلٌ.

يَعنِي: الذِي يَعلَمُ أمرَ اللهِ -تَبارَكَ وتعَالَىٰ- وَلا يَعمَلُ بِهِ، هَذَا جَاهلٌ، جَاهلٌ جَهْلَ العَملِ.

فالجَهلُ نَوعَانِ: عَدمُ العِلمِ بالحَقِّ النَّافعِ، وعَدمُ العِلمِ بمُوجَبِهِ ومُقتَضَاهُ.

فعَمَلُ المَرءِ هُو تَحقيقٌ لِعِلمِهِ، وأمَّا إذَا مَا تَخلَّفَ العمَلُ عنِ العِلمِ فهَذَا هُو جَهلُ العمَلِ، كِلاهُمَا جَهلٌ لُغةً وعُرفًا، وشَرعًا وحَقيقَةً.

قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]، لَمَّا قَالَ لَهُ قَومُهُ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

وقالَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، وكانَ عَالِمًا بِالتَّحريمِ، ولكنَّهُ ضَرَعَ إِلَىٰ ربِّهِ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- وتَضَرَّعَ لِكَي يُنقِذَهُ مِن

هذِهِ المِحنَةِ الكَبيرَةِ، فقَالَ يوسفُ ﷺ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ يعنِي: جَهلَ العَملِ، أَي: مِنْ مُرتَكِبي مَا حرَّمت عَليَّ.

وقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء:١٧].

قالَ قتَادَةُ: «أجمَعَ أصحَابُ رسُولِ اللهِ ﷺ، أنَّ كلَّ مَا عُصِيَ اللهُ بِهِ فهُوَ جهَالَةٌ»[(١)].

وقالَ غَيرُهُ: «أجمَعَ الصحَابَةُ أنَّ كلَّ مَن عَصَىٰ اللهَ فهُوَ جَاهلٌ»[(٢)].

وسُمِّيَ عدَمُ مُراعَاةِ العِلمِ جَهلًا، إمَّا لأنَّهُ لَمْ يَنتَفِعْ بِهِ فنُزِّلَ مَنزِلَةَ الجَهلِ، وإمَّا لجَهلِهِ بسُوءِ مَا تَجَنَّىٰ عوَاقِبَ فعلِهِ؛ فهُو جاهِلٌ فِي الحَالَيْنِ.

والفِرارُ المَذكُورُ فِي قَولِهِ تعَالَىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠]، هُو: فِرارٌ مِن الجَهلَين.

منَ الجَهلِ بالعِلمِ إلَىٰ تَحصِيلِهِ اعتقَادًا ومَعرِفةً وبَصيرَةً.

وفِرارٌ مِنْ جَهلِ العَملِ إلَىٰ السَّعيِ النافِعِ والعَملِ الصالِحِ قصْدًا وسَعيًا، وهوَ الفِرارُ منْ إجَابةِ دَاعِي الكسَلِ إلَىٰ دَاعِي العمَلِ والتشمِيرِ بالجِدِّ والاجتِهادِ، وذَلكَ بصِدقِ العمَلِ وإخلاصِهِ منْ شوَائبِ الفُتورِ، ووُعودِ التَّسويفِ والتهَاونِ، وهُو تَحتَ «السِّينِ وسَوفَ وعَسَىٰ ولعَلَّ» وهذِهِ أضرُّ شَيءٍ عَلَىٰ العَبدِ، وهيَ شجرَةٌ ثمرُهَا الحَسرَاتُ والندَامَاتُ، وتخلُّفُ العَملِ عَن العِلمِ صدٌّ عَن سَبيلِ اللهِ؟ الذِينَ يدعُونَ إلَىٰ اللهِ -تَبارَكَ وتعَالَىٰ- الناسَ بألسِنَتهِمْ وأقوَالِهِمْ، وتتخَلَّفُ أعمالُهُم هؤُلاءِ ممَّنْ يَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ، كمَا قالَ العلامَةُ ابنُ القيِّمِ -رَحمَهُ اللهُ تعَالَىٰ-: «**عُلَماءُ السُّوءِ جَلسُوا عَلَىٰ**

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٦٤٠)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٤٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٦٤٠) عن مجاهد.

باب الجَنَّةِ يدعُونَ النَّاسِ إليهَا بأقوَالِهِمْ: هلُمُّوا هلُمُّوا، ويَدعُونَهُم إِلَىٰ النَّارِ بأفعَالِهِمْ، فكُلَّما قالَتْ أقوَالُهم للنَّاسِ: هلمُّوا. قَالَتْ أفعَالُهم: لَا تَسمَعُوا مِنهُمْ، فَلوْ كانَ مَا دَعَوا إلَيهِ حَقًّا كانُوا أولَ المُستجِيبينَ لَهُ، فَهُم فِي الصُّورَةِ -يَعنِي فِي الصورَةِ الظاهِرَةِ- أدلَّاءُ، وفِي الحَقيقَةِ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ».

الذِينَ يَقطَعُونَ طَرِيقَ الجَنَّةِ عَلَىٰ السَّالِكِينَ مِن أجلِ الوُصولِ إِلَىٰ رِضوانِ اللهِ ربِّ العَالَمِينَ.

عُلَمَاءُ السوءِ قَعدُوا عَلَىٰ بَابِ الجَنَّةِ يَدعُونَ الناسَ إليهَا بأقوَالِهِم، ويَصدُّونَ الناسَ عنهَا بأفْعالِهِم، فهَؤلاءِ مِنَ الذِينَ يصدُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ.

ومَنْ أقامَ حُروفَ القُرآنِ، وكانَ بَارِعًا فِي تِلاوَتهِ، ولَم يَقِفْ مَعَ ذَلكَ عِندَ حَلالِهِ وحَرامِهِ، ولَمْ يأتَمِرْ بأمرِهِ، ويَنتَهِي عَن نَهيِهِ، وتَرَكَ العَمَلَ بِهِ، فهُوَ هَاجِرٌ للقُرآنِ العَظيمِ.

فكَانَ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- يعتَبِرونَ الناسَ بأعمَالِهِم لا بِأقوَالِهِم، وكلُّ مَن خَالَفَ فعلُهُ قولَهُ فَلا اعتِبَارَ لَهُ عِندَهُمْ.

قَالَ الحَسَنُ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَىٰ-: «اعتَبِروا النَّاسَ بأعمَالِهِم ودَعُوا أقوَالَهُم، فإنَّ اللهَ لَمْ يَدَعْ قولًا إِلَّا جعَلَ عَليهِ دَليلًا مِن عمَلٍ يُصدِّقُهُ أو يُكذِّبُهُ، فإذَا سَمِعتَ قَولًا حَسَنًا فَرُوَيْدًا بِصَاحِبِهِ، فإنْ وَافقَ قَولٌ عَمَلًا؛ فنَعَم ونِعْمَتُ عَينٍ؛ آخِهِ وأحْبِبْهُ، وإنْ خَالَفَ قَولٌ عَمَلًا فَمَاذَا يَشْبَهُ عَليكَ مِنهُ؟! أمَّاذا يخفَىٰ عَليكَ مِنهُ؟! إيَّاكَ وَإِيَّاهُ، لا يَخْدَعَنَّكَ كمَا خُدِعَ ابنُ آدَمَ»[(١)].

فلابُدَّ مِن مُوافَقَةِ العَملِ للعِلمِ والعِلمِ للعَملِ.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت برقم (٦٢٦).

إنَّ لكَ قَولًا وعَمَلًا، فعَمَلُكَ أحقُّ بِك مِن قَولِكَ، وإنَّ لَكَ سَريرَةً وعَلانِيةً، فسَرِيرَتُكَ أحقُّ بِك مِن عَلانِيَتِكَ، وإنَّ لكَ عَاجِلةً وعَاقِبةً، فعَاقِبَتُكَ أحقُّ مِن عَاجِلَتِكَ.

قالَ ابنُ مَسعُودٍ رضي الله عنه: «إنَّ الناسَ قَد أحسَنُوا القَولَ كلُّهُم، فمَنْ وَافَقَ قَولُهُ فِعلَهُ فَذلِكَ الذِي أصَابَ حَظَّهُ، ومَن خَالَفَ قَولُهُ عمَلَهُ فإنَّمَا يُوبِّخُ نفسَهُ»[(١)].

قالَ الفُضَيلُ رحمه الله: «لَا يَزَالُ العَالِمُ جَاهِلًا بِمَا عَلِمَ». وهَذَا يبدُو مُتناقِضًا بَاديَ الرَّأيِ، «لا يَزَالُ العَالِمُ»، فأَثبتَ أنهُ عالِمٌ، ثُمَّ قَالَ: «جَاهِلًا بِمَا عَلمَ حتَّىٰ يعمَلَ بِهِ؛ فإذَا عمِلَ بِهِ كانَ عالِمًا»[(٢)].

والأزمَةُ التِي يُعانِيهَا طُلَّابُ العِلمِ خَاصةً، وتُعانِيهَا الأمَّةُ عَامَّةً، إنمَا هيَ منَ الفَصلِ بَينَ العِلمِ وَالعَمَلِ، فصَارَ هُنالِكَ كَلامٌ يُقالُ وفِي الوَقتِ عَينِهِ عِندَنَا عَملٌ يُعمَلُ وهُو عَلَىٰ الضدِّ ممَّا يُقالُ، فأَسَاءَ النَّاسُ الظنَّ بالدِّينِ وحَمَلَتِهِ والدَّاعِينَ إلَيهِ.

والأَصلُ أنْ يُوافِقَ العِلمُ العَملَ فَمِنْ واجِبنَا نَحوَ مَا أمرَنَا اللهُ بِهِ: العَملُ بِهِ، وقَد كَانَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أولَ الناسِ فِي هَذَا الأمرِ، فإنهُ مَا أمَرَ بشَيءٍ إلَّا كانَ أسرَعَ الناسِ إليهِ، وَلَا نَهىٰ عَن شَيءٍ إلَّا وكانَ أبعَدَ النَّاسِ عَنهُ، وقَد تعَلَّمَ الصحَابَةُ هَذَا الأصلَ الكَبيرَ وعَمِلُوا بِهِ.

فقَدْ أخرَجَ ابنُ سَعدٍ فِي «الطَّبقَاتِ» بإسنَادٍ صَحيحٍ عَن أبِي عَبدِ الرحمَنِ السُّلَمِيِّ قالَ: «إنَّا أخَذْنَا القُرآنَ عَن قَومٍ -يَعنِي: الصحَابَةَ رضي الله عنهم- أخبَرُونَا أنَّهم كانُوا إذَا تعلَّمُوا عَشْرَ آياتٍ لَم يُجاوِزُوهُنَّ إلَىٰ العَشرِ الأُخَرَ حتَّىٰ يعلَمُوا مَا فِيهِنَّ ويعمَلُوا بِهِنَّ،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت برقم (٦٢٧)، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٤١٣).
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ٤٢٧).

فكُنَّا نتعَلَّمُ القُرآنَ والعَملَ بِهِ»[(١)].

هذِهِ هِي الطرِيقَةُ النبويَّةُ فِي التعليمِ؛ لأنَّ القُرآنَ نَزَلَ مُنَجَّمًا عَلَىٰ قَلبِ النَّبيِّ الأمِينِ ﷺ، وكَانَ كلُّ دَرسٍ إلَهِيٍّ مِن هَذَا الكَلامِ الربَّانِيِّ العَظيمِ الذِي هُو كَلامُ ربِّنَا -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- ينزِلُ عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ يتحَوَّلُ إلَىٰ عَملٍ فِي التَّوِّ واللَّحظَةِ، يَلتزِمُ بذَلكَ رسُولُ اللهِ ﷺ، ويَلتَزِمُ بذَلِكَ أصحَابُهُ -رِضوَانُ اللهِ عَلَيهِم أجمَعِينَ-.

فيجِبُ عَلَىٰ المُسلِمِ أنْ يعلَمَ مَا أوجَبَ اللهُ عَليهِ، وأنْ يعلَمَ بِمَا أمرَهُ اللهُ بهِ، وأنْ يُحِبَّهُ، وأنْ يعزِمَ عَلَىٰ العَملِ، وأنْ يعمَلَ بِهِ عَقيدَةً وعِبادَةً، وأخلَاقًا وآدَابًا ومُعامَلَةً.

وهَذَا هُوَ ثَمَرَةُ العَملِ ونَتيجَتُهُ.

وقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبيِّ ﷺ كمَا عندَ مُسلِمٍ فِي الصَّحِيحِ: «**القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أوْ عَلَيكَ**»[(٢)].

لَكَ إنْ عمِلْتَ بِهِ، وعَلَيكَ إنْ لَمْ تَعمَلْ بِهِ.

والعَملُ بمَا صَحَّ عنِ النَّبيِّ ﷺ يكُونُ بتَصدِيقِ الأخبَارِ وامتِثَالِ الأحكَامِ، ومَن وُفِّقَ للعَمَلِ بمَا أمَرَهُ اللهُ بِهِ فَلَا يَدَعنَّ العَملَ لأجْلِ أحَدٍ، فإنَّ كَثيرًا ممَّنْ عَزَمَ أو عَمِلَ يَدَعُ العَملَ لأجلِ مَن يُعظِّمهُ مِن شُيوخٍ أوْ غَيرِهِم إذَا تبيَّنَ عَليهِ عَزمُهُ أوْ عَمَلُهُ، وقَد قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

فَبِنَصِّ القُرآنِ العَظيمِ أكثرُ مَن فِي الأرضِ ضالٌّ مُضِلٌّ؛ كمَا قَالَ ربُّنا -تَبارَكَ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٦/ ١٧٢).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

وتعَالَىٰ-، والإنسَانُ لَا يكُونُ مُضِلًّا حتَّىٰ يكُونَ ضَالًّا فِي نَفسِهِ، فيَضلُّ أوَّلًا ثُمَّ يُضِلُّ غَيرَهُ، فأخبَرَنَا رَبُّنا -تبَاركَ وتعَالَىٰ- بِهَذَا الأمرِ الكَبيرِ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

❊ ❊ ❊

* المَرْتَبَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ عَمِلَ لَا يَقَعُ عَمَلُهُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا لَمْ يَقَعْ صَوَابًا.

الشــرح

قَالَ الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى- ذاكرًا المَرتبَةَ الخَامسةَ مِن مرَاتبِ مَا يجِبُ علينَا نَحوَ مَا أمرَ اللهُ بِهِ مِن أمرٍ، فإنَّ مَا أمَرَنا اللهُ بِهِ مِن أمرٍ؛ فقَد وجَبَ عَلينَا نَحوَ هَذَا الأمرِ الذِي أمرَنَا اللهُ -تَبَارك وتعَالَى- بِهِ أمورٌ، منهَا مَا مرَّ ذِكْرُهُ: «**أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ عَمِلَ لَا يَقَعُ عَمَلُهُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا لَمْ يَقَعْ صَوَابًا**».

فهَذَا ضمَّه الشيخُ إلَى مَا مرَّ ذِكرهُ منَ الأمُورِ التِي تجِبُ عَليكَ نَحوَ مَا أمرَكَ اللهُ ربُّ العَالمِينَ بِهِ مِن أمرٍ، كلُّ أمرٍ أمرَكَ اللهُ ربُّ العَالمِينَ بهِ؛ فقَد وجَبَ عَليكَ فِيهِ أمُورٌ:

١- أَنْ تَعلَمَهُ.

٢- وأَنْ تُحِبَّهُ.

٣- وأَنْ تَعزِمَ عَلَى العَملِ بِهِ عَزمًا مُؤكَّدًا تَعقِدُ عَليهِ قَلبَكُ.

٤- وأَنْ تَعمَلَ بِهِ عَلَى وَفْقِ مَا جاءَ بِهِ الرسُولُ ﷺ مُخلصًا الوَجهَ للهِ ربِّ العَالمِينَ.

فذَكَرَ الشيخُ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى- شَرطَي قَبولِ العَملِ وهُمَا: **الإِخلاصُ، والمُتابَعَةُ**، وهَذَان رُكنَا العَملِ المُتقبَّلِ عِندَ اللهِ، فلابُدَّ أن يكُونَ العَملُ خَالصًا للهِ، صَوابًا عَلَى وَفْقِ مَا جاءَ بِهِ رسُولُ اللهِ ﷺ.

العَملُ إذَا كانَ خَالصًا ولَم يكُنْ صَوابًا لَمْ يُقبلْ، وإذَا كانَ صَوابًا ولَم يكُنْ خَالصًا لَم يُقبَلْ، حتَّىٰ يكونَ خَالصًا صَوابًا.

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فأمَرَ اللهُ بأنْ يكُونَ العَملُ صَالحًا؛ أَي: مُوافقًا للشَّرعِ، وأمَرَ أنْ يَقصِدَ بهِ صَاحبُهُ وجهَ اللهِ تعَالَىٰ لا يَبتَغِي بهِ سِواهُ.

وكُلُّ عَملٍ لَم يَردْ بهِ سُنَّةٌ عَنِ النَّبيِّ ﷺ وَلا أَثَرٌ فهُو عَملٌ مُبتَدَعٌ، وهوَ مَردُودٌ عَلَىٰ صاحبِهِ، وكلُّ عمَلٍ لَم يُردْ بِهِ صاحِبُهُ وجهَ اللهِ فهُوَ مَردُودٌ أيضًا لا يُقبَلُ.

قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ لا يَقبلُ مِنَ العَملِ إلَّا مَا كانَ خَالصًا وابتُغِيَ بهِ وجهُهُ**»(١). أخرَجهُ النسَائيُّ بسَندٍ جَيدٍ.

فالآنَ فِي المَرتبَةِ الخَامسَةِ، وهيَ التِي تَحكُمُ العمَلَ فِي حَالِ وُقوعِهِ نيَّةً وأدَاءً، إذَا عَرَفَ العَبدُ مُرادَ ربِّهِ منهُ فِي هَذَا الأمرِ، وعَلِمَهُ، وأحبَّهُ، فعَزَمَ عَلَىٰ الإتيَانِ بهِ فعَمِلهُ، فيَنبغِي أنْ يعمَلَهُ عَلَىٰ هَذَا النَّحوِ وأنْ يقَعَ العَملُ خَالصًا للهِ ربِّ العَالَمِينَ وحدَهُ، صَوابًا عَلَىٰ وَفْقِ مَا جاءَ بِهِ الرسُولُ ﷺ.

قَالَ ﷺ: قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «**أنَا أغنَىٰ الشُّركَاءِ عنِ الشِّركِ، فمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أشرَكَ فيهِ غَيرِي فَأنَا مِنهُ بَرِيءٌ وهُو للذِي أشرَكَ**»(٢). روَاهُ ابنُ ماجَه مِن حَديثِ أبِي هُريرَةَ رضي الله عنه، وإسنادُهُ صَحيحٌ عَلَىٰ شَرطِ مُسلِمٍ.

(١) حديث حسن: أخرجه النسائي (٣١٤٠) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٥٦).

(٢) حديث صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤).

وقَد أخرَجهُ مُسلِمٌ فِي صَحيحِهِ بنَحوِهِ، فرَوَىٰ مُسلِمٌ عَن أبِي هُريرَةَ ﵁ قالَ: سَمعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**قالَ اللهُ تعَالَىٰ: أَنَا أغنَىٰ الشُّركَاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ معِي فِيهِ غَيرِي تَركتُهُ وشِركَهُ**»[(١)].

الإخلاصُ: هُو التَّوقِّي مِن مُلاحَظَةِ الخَلقِ.

والصِّدقُ: هُو التَّنقِّي مِن مُطالَعَةِ النَّفْسِ.

فالمُخلِصُ: لَا رِياءَ لَهُ.

والصَّادِقُ: لَا إعجَابَ لَهُ، ولَا يَتِمُّ الإخلَاصُ إلَّا بالصِّدقِ، وَلا الصِّدقُ إلَّا بالإخلَاصِ، ولَا يَتِمَّانِ إلَّا بالصَّبرِ.

فالعمَلُ لا يُقبلُ عِندَ اللهِ تعَالَىٰ حتَّىٰ يكُونَ خَالصًا لَيسَ لأحَدٍ سِوَىٰ اللهِ فِيهِ شَيءٌ، وقَد أخبَرَ ﷺ عَن أولِ ثَلاثَةٍ تُسعَّر بِهِمُ النارُ: قَارِئُ القُرآنِ، والمُجاهِدُ، والمُتصدِّقُ بمَالِهِ، الذِينَ فعلُوا ذَلكَ ليُقَالَ: فُلانٌ قَارِئٌ، فُلانٌ شُجاعٌ، فُلانٌ مُتصدِّقٌ، ولَم تَكُنْ أعمالُهُم خَالصَةً للهِ تعَالَىٰ، وهَذَا الحدِيثُ أخرجَهُ مُسلِمٌ فِي صَحيحِهِ[(٢)] فِي أوَّلِ مَن تُسعَّر

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة ﵁، ولفظه: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ

بِهِمُ النارُ، وهُم مِن هذِهِ الأصنَافِ الشَّريفَةِ: مِن قارِئِ كتَابِ اللهَّ -تبَارك وتعَالَىٰ-، ومِنَ العُلَماءِ وأيضًا مِنَ الُمجاهِدينَ، ومِنَ الُمتصدِّقينَ الأجوَادِ، ولكِنْ لَم تكُنْ أعمَالُهُم خَالصَةً للهَّ تعَالَىٰ، فَهُم أوَّلُ مَن تُسعَّرُ بِهِمُ النَّارُ كَما قَالَ النَّبيُّ ﷺ.

قالَ رَبُّنا -جلَّ وعَلا- فِي كِتابِهِ العَظيمِ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]، فاللهَّ تعَالَىٰ إنَّما شَرَعَ لكُمْ هذِهِ الذَّبائحَ مِنَ الهَدَايَا، والضَّحايَا، لتَذكُرُوهُ، وتَشكُروهُ، وتُخلِصُوا لَهُ عِندَ ذَبحِهَا، ولِيجزِيَكُمْ عَليهَا أحسَنَ الجَزاءِ وإلَّا فهُو سُبحانَهُ غنيٌّ لا حاجَةَ لهُ بِهذِهِ اللحُومِ، ولَا بِهذِهِ الدمَاءِ، وإنَما يُريدُ منكُم تقوَىٰ القُلوبِ، ويُريدُ مِنكُمُ الإخلَاصَ لوَجهِهِ -جلَّ وعَلا-، فمَن تابَعَ الرسُولَ ﷺ ولَم يُخلِصْ لَم تُقبَلْ عبادَتُهُ، ومَنْ أخلَصَ للهَّ تعَالَىٰ ولَمْ يتَّبعْ رسُولَ اللهَّ ﷺ، فإنَّ عبَادتَهُ مَردودَةٌ عَليهِ.

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الأجرَ لَيسَ بِحَاصِلٍ ... إلاَّ إذَا كَانَتْ لَهُ صِفَتَانِ
لَا بُدَّ مِن إخلاَصِهِ ونَقَائِهِ ... وَخُلُّوهِ مِن سَائِرِ الأَدْرَانِ
وَكَذَا مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فَإنَّهَا ... شَرْطٌ بِحُكمِ نَبِيِّنَا العَدْنَانِ

فِفِي الصَّحيحَينِ عَن عائشَةَ رضي الله عنها قالَتْ: قالَ رسُولُ اللهَّ ﷺ: «مَن أحدَثَ فِي أمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنْهُ فهُوَ رَدٌّ»(١).

=

بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وعندَ مُسلِمٍ، وعلَّقَهُ البخارِيُّ مِن روَايَتِهَا رضي الله عنها بلَفْظِ: **«مَنْ عمِلَ عَملًا ليسَ عَليهِ أمرُنَا فهُوَ ردٌّ»**(١).

فأحَدُ السِّياقَينِ يتعَلَّقُ بالعَملِ والآخَرُ يتعلَّقُ بالعَامِلِ.

وحَدِيثُ عائِشةَ رضي الله عنها هَذَا نِصفُ العِلمِ، لأنَّ الأعمَالَ إمَّا ظاهِرَةٌ، وإمَّا باطِنَةٌ.

فالأعمَالُ البَاطنَةُ مِيزانُها حَديثُ عُمرَ رضي الله عنه فِي الصَّحِيحَينِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«إنَّمَا الأعمَالُ بالنيَّاتِ وإنَّما لكُلِّ امْرِئٍ مَا نوَىٰ....»**(٢). الحَديثَ، فهَذَا مِيزانُ البَاطِنِ.

وأمَّا حَديثُ عائِشَةَ فمِيزَانُ الأعمَالِ الظَّاهِرَةِ، **«مَن أحدَثَ فِي أمرِنا هَذَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهُوَ ردٌّ»**. رَدٌّ؛ أَي: مَردُودٌ عَلَىٰ صَاحبِهِ، غَيرُ مَقبولٍ مِنهُ.

وقَولُهُ ﷺ: **«فِي أمرِنَا»**، المُرادُ بِهِ: فِي دِينِنَا وشَرعِنَا، كَمَا قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

فأَمرُ اللهِ المُرادُ بِهِ فِي هَذَا الحَديثِ: شَرعُ اللهِ، مَن أحدَثَ فِي دِينِ اللهِ -تَبَارك وتعَالَىٰ-، فِي شَرعِ اللهِ -جلَّ وعَلا- مَن أحدَثَ فِيهِ مَا لَيسَ مِنهُ فهُوَ ردٌّ، فَلِكَي يكُونَ العَملُ مَقبُولًا عِندَ اللهِ لابدَّ أنْ يكُونَ خَالصًا للهِ عَلَىٰ وَفْقِ شَرعِ اللهِ، ومَا جَاءَ بِهِ رسُولُ اللهِ ﷺ.

ذَكَرَ الشَّيخُ -رحِمَهُ اللهُ تعَالَىٰ- فِي هَذِهِ المَرْتَبَةِ: **«أن كثيرًا ممن عَمِلَ لا يقع عمله خالصًا وإن وقع خالصًا وأراد به وجه الله لَم يقع عَلَىٰ وفق السُّنَّة»**.

(١) **حديث صحيح**: أخرجه البخاري تعليقًا فِي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ، ومسلم (١٧١٨).

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

كَثيرٌ جدًّا منَ المُسلِمين الطَّيبينَ يُصلُّونَ العُقودَ للهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- مُخلِصينَ فِي صَلاتِهِم، ولكنَّهُم لا يعرِفُونَ كيفَ يُصلُّونَ، ويُسِيئُونَ الصَّلَاةَ، والنَّبيُّ ﷺ قالَ للمُسيءِ فِي صلاتِهِ: «ارجِعْ فصَلِّ فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فهؤلاءِ يتوَفَّرُ عندَهُم شَرطُ الإخلَاصِ ويَذهَبُونَ إلَىٰ المَساجدِ مُبكِّرينَ فِي السَّحَرِ الأعْلَىٰ، ويَذكُرونَ اللهَ كَثيرًا، ولكِنَّهُم لا يَعرِفُونَ كيفَ يُصلُّونَ كمَا كانَ النبيُّ المَأمُونُ ﷺ يُصَلِّي، وهَذَا أمرٌ تنقَطِعُ فِيهِ الأعذَارُ، لأنَّ النبيَّ ﷺ قَد وضَّحَ هَذَا الأمرَ تَوضِيحًا حتَّىٰ صلَّىٰ عَلَىٰ المِنبَرِ، ﷺ، فكانَ إذَا كانَ فِي السُّجودِ رجَعَ القَهْقَرَىٰ حتَّىٰ ينزِلَ عنِ المِنبَرِ، ثُمَّ سَجدَ فِي أصلِهِ، ثُمَّ إذَا مَا رَفَعَ مِنَ السجُودِ صَعِدَ المِنبَرَ مرَّةً أخرَىٰ، حتَّىٰ يرَاهُ كُلُّ مَن فِي المَسجِدِ مِن أصحَابِهِ، يقُولُ: «صَلُّوا كمَا رَأيتُمُونِي أُصَلِّي»(١).

فَلا يَكفِي أنْ يكُونَ العَملُ خَالصًا للهِ حتَّىٰ يكُونَ صَوابًا عَلَىٰ وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ رسُولُ اللهِ، وهَذَا هُوَ مَا ذَكرهُ الشَّيخُ -رحِمَهُ اللهُ تعَالَىٰ- فِي هذِهِ المَرتَبَةِ.

كُلُّ مَا أمرَكَ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- بِهِ مِن أمرٍ فانظُرْ فِيهِ مِن خِلالِ هذِهِ المَراتِبِ، عَليكَ أنْ تعلَمَهُ، فالعِلمُ قَبلَ القَولِ والعَملِ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وبهذِهِ الآيةِ استدَلَّ البُخارِيُّ فِي الصَّحيحِ -رحِمهُ اللهُ تعَالَىٰ- عَلَىٰ أنَّ العِلمَ قَبلَ القَولِ والعَملِ.

فإذَا مَا علِمتَ مَا أمرَكَ اللهُ بِهِ وأحَطتَ بِهِ عِلمًا؛ فأحبَّهُ، لابدَّ أنْ تُحِبَّهُ، واجِبٌ عَليكَ أنْ تُحِبَّ مَا أمرَكَ اللهُ بِهِ، فَلا تَأتِي مَا أمركَ اللهُ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- بِهِ وأنتَ كَارهٌ، بَلْ تُحبُّ مَا أمرَكَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بِهِ مِن أمرٍ، ثُمَّ تعزِمُ عَلَىٰ الإتيَانِ بِهِ، ثُمَّ تفعَلُ هَذَا الذِي أمرَكَ

(١) حديث صحيح: تقدم تخريجه (ص٢٣).

اللهُ -تبَارك وتعَالَىٰ- بهِ، ثمَّ إذَا مَا فَعلْتَهُ فليَقَعْ مِنكَ هَذَا العَملُ خَالصًا للهِ -تبَاركَ وتعَالَىٰ- لَيسَ لأحدٍ فِيهِ نَصيبٌ، فتُخلِصَ للهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- فِيهِ إخْلَاصًا، ثُمَّ تَأْتِي بهِ صَوَابًا؛ يَعنِي: تَأْتِي بهِ عَلَىٰ وَفْقِ مَا أمرَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ.

وَهَذِهِ هِي المَراتِبُ التِي مرَّ ذِكْرُهَا.



* المُرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِن حُبُوطِ الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]. وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا.

الشــرح

وأمَّا المَرتَبَةُ السَّادِسَةُ مِن مَرَاتِبِ مَا يَجِبُ عَلينَا إذَا أمَرَنَا اللهُ بأمْرٍ فَهِيَ: مَرتبَةُ الخَوفِ مِن حُبوطِ العَملِ بَعدَ وُقوعِهِ، فَقَال -رحمه اللهُ تعَالَى-: «إِنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِن حُبُوطِ الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]»؛ فيحبط عَليكَ عملك وأنت لا تشعر.

وهَذَا كَمَا قَالَ الشَّيخُ: «مِنْ أَقَلِّ الأشيَاءِ فِي زَمانِنَا».

هَذَا مِن أَقَلِّ الأشيَاءِ؛ أنْ تخافَ أنْ يَحبطَ عمَلُك، هَذَا لا يَلْتَفِتُ إلَيهِ إلَّا مَن وفَّقهُ اللهُ تعَالَىٰ ونوَّرَ بَصيرَتَهُ، ومَا ذَكرَهُ الشيخُ رَحِمَهُ اللهُ مِن مُحاسَبةِ النَّفسِ بعدَ العَملِ ثَلاثَةُ أنْواعٍ:

أحدُهَا: مُحاسبتُهَا عَلَىٰ طاعةٍ قصَّرتْ فيهَا مِن حقِّ اللهِ تعَالَىٰ، فلَمْ تأتِ بها عَلَىٰ الوَجهِ الذِي يَنبغِي، وهَذَا مَا لحظَهُ مَن لحَظَهُ مِن أكابِرِ عُلمَائِنَا -رَحمَةُ اللهِ عَليهِم- فِي النَّظرِ فِي الحِكمَةِ والتَّعليلِ لِفعْلِ النَّبيِّ ﷺ وقَولِهِ بَعد أن يَفرُغَ مِن الصَّلاةِ، فإنَّهُ كانَ إذَا فَرَغَ مِن الصَّلَاةِ ﷺ، استغفَرَ ثَلاثًا، فهَذَا يُثِير سُؤالًا: هذِهِ طَاعةٌ، بَل هِي أجَلُّ الطَّاعاتِ للهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بَعدَ التَّوحِيدِ، والإتيَانُ بِأعظَمِ الأركَانِ بَعدَ الشَّهادَتَينِ، ومعَ ذَلكَ فإنَّهُ إذَا فرغَ مِنَ الصَّلَاةِ ﷺ كانَ يَستغْفِرُ ربَّهُ ثَلَاثًا.

فقَالَ العُلَمَاءُ -عَلَيهِمُ الرَّحمَةُ-: إنَّ ذَلكَ رِعايةٌ للقُصورِ والتَّقصِيرِ الذِي وقَعَ فِيهَا، ولأنَّ الإنسَانَ لَا يُمكِنُ أنْ يَأتِيَ بِمَا أمَرَهُ اللهُ بِهِ عَلَىٰ النَّحوِ الذِي أمرَهُ اللهُ بِهِ، ولابُدَّ أنْ يَقعَ منهُ منَ التَّقصِيرِ بِحسَبِهِ، فَالإنسَانُ يخافُ مِن حُبوطِ العَملِ بَعدَ وُقوعِهِ، ويَدخُلُ فِي مُحاسَبةِ النفسِ عَلَىٰ هذِهِ المَرَاتبِ، فأحَدُ تِلكَ المَراتِبِ فِي مُحاسَبةِ النَّفسِ بَعدَ العَملِ أن يُحاسِبَهَا عَلَىٰ الطَّاعَةِ التِي قصَّرَتْ فِيهَا مِن حَقِّ اللهِ تعَالَىٰ، فَلَمْ تأتِ بِها عَلَىٰ الوَجهِ الذِي يَنبَغِي.

وحقُّ اللهِ -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- فِي الطاعَةِ ستَّةُ أمُورٍ، وهِيَ:

١- الإخلَاصُ فِي العَملِ.

٢- والنَّصِيحَةُ للهِ فِيهِ.

٣- ومُتابَعَةُ الرسُولِ ﷺ فِيهِ.

٤- وشُهودُ مَشهَدِ الإحسَانِ فِيهِ، وأنَّهُ لَولَا أنَّ اللهَ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- أحسَنَ إلَيكَ ووَفَّقَكَ مَا أتيتَ بِهِ، فَلا تَلْحَظُ لنفسِكَ فَضلًا، ولا تَلْحَظُ نَفسَكَ أصْلًا.

٥- وشُهودُ مِنَّةِ اللهِ عَلَيكَ.

٦- وشُهودُ تَقصِيرِكَ فِي هَذَا العَملِ بَعدَ ذَلكَ كُلِّهِ.

فهذِهِ الأمُورُ هِي التِي يَنبَغِي أنْ يَأتِيَ بِها الإنسَانُ حقًّا للهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- فِي كُلِّ طاعَةٍ، يُحاسِبُ نَفسَهُ: هَل وفَّىٰ هذِهِ المَقامَاتِ حَقَّهَا؟! وهَل أتَىٰ بِها فِي هذِهِ الطَّاعَةِ أَو لَمْ يأتِ بِها؟

وَالثَّانِي: أنْ يُحاسِبَ نَفسَهُ عَلَىٰ كُلِّ عَملٍ كانَ تَرْكُهُ خَيرًا لَهُ مِن فِعلِهِ، فإذَا فَعلَهُ ووَقَعَ وكانَ تَرْكُهُ خَيرًا مِن فِعلِهِ يُحاسِبُ نَفسَهُ بَعدُ، ولِمَاذَا فَعلْتُهُ؟ لابدَّ أنْ يُحاسِبَ نَفسَهُ

عَلَىٰ هَذَا العَملِ الذِي كانَ تَركُهُ خَيرًا لهُ مِن فِعلِهِ.

وَالثَّالِثُ: أنْ يُحاسبَ نَفسَهُ عَلَىٰ أمرٍ مُباحٍ أوْ مُعتادٍ: لِمَ فَعلَهُ؟ وهل أرَادَ بِهِ اللهَ والدارَ الآخرَةَ فيكُونَ رَابحًا، أوْ أرَادَ بِهِ الدُّنيَا وعَاجِلَهَا فيَخسَرَ ذَلكَ الرِّبحَ ويفُوتَهُ الظَّفَرُ بِهِ؟!

فَيسأَلُ الإنسَانُ نَفسَهُ مُحاسِبًا إيَّاهَا عَلَىٰ هَذَا النَّحوِ بِهذِهِ المَراتبِ.

مُحبطَاتُ الأعمَالِ ومُفسِدَاتُها أكثرُ مِن أنْ تُحصَىٰ، ولَيسَ الشَّأنُ فِي العَملِ إنَّمَا الشَّأنُ فِي حِفظِ العَملِ ممَّا يُفسِدُهُ ويُحبِطُهُ، فَالرِّيَاءُ -وإنْ دقَّ- مُحبطٌ للعَملِ، وهُو أبوَابٌ كَثيرةٌ لَا تُحصَىٰ، وكَونُ العَملِ غَيرَ مُقيَّدٍ بالسُّنَّةِ مُوجِبٌ لكَونِهِ بَاطلًا، والمَنُّ بِالعمَلِ عَلَىٰ اللهِ بالقَلبِ مُفسِدٌ لهُ، وكَذلِكَ المَنُّ بالصَّدقَةِ والمَعروفِ والبرِّ والإحسَانِ والصِّلةِ مُفسِدٌ لهَا كمَا قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٤].

فهَذَا بابٌ قلَّ مَن يَفْطُنُ إلَيهِ ويتنبَّهُ لَهُ، هَذَا بَابٌ كَبيرٌ فمَا أكثَرَ الذِينَ يَعمَلُونَ الأعمَالَ الصَّالحَةَ الكَبيرَةَ الجَليلَةَ يَمنُّونَ عَلَىٰ اللهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بقُلوبِهم بِتِلكَ الأعمَالِ وبإتيَانِهَا، أو يتصَدَّقُونَ الصدقَاتِ ثُم يَمُنُّونَ بتِلكَ الصَّدقَاتِ فيبُطلُونَها كمَا قالَ اللهُ -جلَّ وعَلا-.

إذَن؛ لَيسَتِ العِبْرَةُ فِي العَملِ، وإنمَا العِبْرَةُ فِي حِفظِ العَملِ ممَّا يُحبِطُهُ ويُبطِلُهُ ويُفسِدُهُ بعدَ أنْ وقَعَ صَحِيحًا فيَكرُّ عَلَيهِ بجَيشِ الإبطَالِ والإفسَادِ عَلَىٰ هَذَا النَّحوِ حتَّىٰ يَفسَدَ عَليهِ العمَلُ ويَحبطَ.

أكثَرُ النَّاسِ مَا عِندَهُم خَبَرٌ مِنَ السيِّئَاتِ التِي تُحبِطُ الحسَنَاتِ، وقَدْ قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات:٢]، فَقَد يَحبَطُ العَملُ وأنتَ لَا تَشعُرُ، ويَبطُلُ هَذَا العمَلُ الذِي قَد عمِلْتَهُ وتكَلَّفتَ فِيهِ وأنتَ لا تَدرِي، فأكثَرُ النَّاسِ مَا عِندَهُم

خَبَرٌ مِن السيئَاتِ التِي تُحبِطُ الحسَنَاتِ، وَقَد حَذَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ المُؤمِنينَ مِن حُبوطِ أعمَالِهِم بِالجَهرِ لرَسُولِ اللهِ ﷺ كَما يجهَرُ بَعضُهُم لِبَعضٍ، فَإنْ فَعَلُوا حَبِطَ عَملُهُم وهُم لَا يَشعُرونَ، ولَيسَ هَذَا بِردَّةٍ، بَل هَذِهِ مَعصِيةٌ تُحبطُ العمَلَ وصَاحبُهَا لا يشعُرُ بهَا.

فَمَا الظَّنُّ -أَي: إذَا كانَ ذَلكَ كذَلِكَ- بمَنْ قدَّمَ عَلَىٰ قَولِ الرسُولِ ﷺ وهَدْيِهِ وطَرِيقِهِ قولَ غَيرِهِ وهَديِهِ وطَرِيقَهِ؟!

مَا الظَّنُّ بِمنْ كَانَ كَذلِكَ؟!

إذَا كانَ رَفْعُ الصَّوتِ فَوقَ صَوْتِ النَّبيِّ ﷺ كَرفْعِ صَوتِ بَعضِهِم لِبَعضٍ يُحبِطُ العَملَ مِن غَيرِ شُعورٍ ممَنْ حَبِطَ عَمَلُهُ، فَكَيفَ بِمنْ يُقدِّمُ القَولَ عَلَىٰ قَولِ الرَّسُولِ؟! والهَديَ عَلَىٰ هَدْيِ الرسُولِ؟! والمِنهَاجَ عَلَىٰ مِنهَاجِ الرَّسُولِ؟! والطرِيقَ عَلَىٰ طَرِيقِ الرَّسُولِ ﷺ؟ أَلَيسَ هَذَا قَدْ حَبِطَ عَملُهُ وهُو لَا يشعُرُ؟!

فَمَعرِفَةُ ما يُفسِدُ الأعمَالَ فِي حالِ وقوعِهَا، ومَا يُبطِلُهَا ويُحبطُهَا بعدَ وقوعِهَا، مِن أهمِّ مَا يَنبغِي أن يُفتِّشَ عَليهِ العَبدُ، ويحرِصَ عَلَىٰ عِلمِهِ ويحذَرَهُ، وقَد ذَكَرَ اللهُ تعَالَىٰ الذِين يُعطُونَ مِن أنفُسهِم، فمَا أُمِرُوا بهِ مِن أمْرٍ أَتوا بِمَا يَقدِرُونَ عَليهِ مِنهُ، مِن صَلاةٍ، وزَكاةٍ، وحَجٍّ، وصدَقَةٍ، وغَيرِ ذَلكَ، ومعَ هَذَا فقلُوبُهُم خائِفةٌ عِندَ عَرضِ الأعمَالِ عَلَىٰ اللهِ والوُقوفِ بَينَ يدَيهِ، أنْ تكُونَ أعمالُهُم غَيرَ مُنجيَةٍ مِن عذَابِ اللهِ تعَالَىٰ، لِعلْمِهِم برَبِّهِم، ومَا يَستحِقُّهُ مِن أصنَافِ العِبادَاتِ، ومَا فِي أعمَالِهِم مِن قُصورٍ وتَقصِيرٍ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠].

أخرَجَ الإمَامُ أحمَدُ عَن عَائشَةَ رضي الله عنها أنَّها قَالتْ: يَا رسُولَ اللهِ، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هوَ الذِي يسرِقُ ويَزنِي ويشرَبُ الخَمرَ وهُو يخَافُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قالَ: «**لَا، يَا بِنتَ الصِّدِّيقِ، لَا يَا بِنتَ أَبِي بَكرٍ، ولكِنَّهُ الذِي يصَلِّي ويصُومُ ويتَصَدَّقُ وهُو يخَافُ اللهَ**

عَزَّ وَجَلَّ».

وهكَذَا رَواهُ التِّرمِذِيُّ وقَالَ: «**لَا، يَا بِنتَ الصِّديق، ولكِنَّهُم الذِينَ يُصلُّونَ، ويَصُومُونَ، ويَتَصدَّقُونَ وهُم يَخَافُونَ ألَّا يُقبَلَ مِنهُمْ**»[1]. ورواهُ ابنُ ماجَه وإسنَادُهُ حَسَنٌ.

فوَصَفَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- هَؤلاءِ الخَاشِعِينَ مِن أهلِ الخَشيَةِ وَأنَّهُم يُصلُّونَ، ويَصُومُونَ، ويتَصدَّقُونَ، ويَفعلُونَ الخَيرَ وقُلُوبُهم وجِلَةٌ أنَّهُم إذَا عُرِضُوا عَلَىٰ اللهَّ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- ونُظِرَ فِي تِلكَ السَّرائِرِ وُجِدَ أنَّ العمَلَ بدَوَافِعِهِ لَمْ يكُنْ خَالصًا للهَّ، فقُلُوبُهم وَجلَةٌ مَعَ أعمَالِهِمُ الصَّالحِةِ العَظيمَةِ، لَا كمَا رَأَتْ عَائشَةُ رضي الله عنها فصَوَّبَ لهَا النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ورَوَىٰ ابنُ ماجَه عَن ثَوبَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنهُ قالَ: «**لأعلَمنَّ أقوَامًا مِن أُمَّتِي يأتُونَ يومَ القِيامَةِ بحَسَناتٍ كأمثَالِ جِبالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فيَجعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هبَاءً مَنثُورًا**» قالَ ثَوبَانُ: يَا رسُولَ اللهَّ، صِفهُمْ لنَا، حَلِّهِم لنَا، وفِي رِوايَةٍ: جَلِّهِم لنَا -أمَّا بالإعجَامِ فمِنَ التَّجلِيةِ، وهِيَ كشفُ حالِهِم، وأمَّا: حَلِّهِم؛ يعنِي: اذكُرْ لنَا حِلْيَتَهُمْ وصِفَتَهُم حتَّىٰ نَعرِفَهُم، والمَعنَىٰ قَرِيبٌ مِن قَريبٍ-؛ ألَّا نَكونَ مِنهُم ونَحنُ لَا نَعلَمُ. قَالَ: «**أمَا إنَّهُم إخوَانُكُم ومِن جِلدَتِكُم**؛ -يعنِي: ومِن جِنسِكُمْ-، **ويَأخُذونَ منَ اللَّيلِ كمَا تَأخذُونَ؛ ولكِنَّهُم أقوَامٌ إذَا خَلَوا بمَحَارِمِ اللهَّ انتَهَكُوهَا**»[2].

هَذَا الحَديثُ حَديثٌ مُخُوفٌ جِدًّا، مُفظِعٌ حَقًّا، وفِيهِ أنَّ أقوَامًا يَنصَبُونَ هَذَا النَّصَبَ، ويأتُونَ بِهَذَا العمَلِ الكَبيرِ الذِي وصَفَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم بأنَّهُ حسَناتٌ كأمثَالِ جِبال

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٧٣٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢).

(٢) حديث صحيح: تقدم تخريجه (ص١٨).

تِهَامَةَ بيضًا، وجِبالُ تِهامَةَ سِلسِلةٌ مِنَ الجِبالِ فِي أرضِ الحِجازِ، وهِيَ مُمتدَّةٌ امتدِادًا كَبيرًا طَوِيلًا، فيَقُولُ النَّبيُّ ﷺ: «**لأعلَمَنَّ أقوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَومَ القِيامَةِ بحَسناتٍ كأَمثَالِ جِبالِ تِهامَةَ بيضًا، فَيجعَلُهَا اللهُ هبَاءً مَنثُورًا**»، مَا العِلَّةُ؟

العِلَّةُ: أنَّ هَؤلاءِ عِندَهُم رِقَّةٌ فِي الدِّينِ، وعِندَهُم ضَعفٌ فِي اليَقِينِ، وأنَّهُم لا يُراقِبونَ اللهَ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- حَقَّ الرِّقَابَةِ، فإذَا خَلَوا بمَحَارِمِ اللهِ انتهَكُوهَا، وأعمَالُهُم بعدُ كَمَا وَصَفَ الرسُولُ ﷺ فَمَا أَغنَتْ عَنهُم شَيئًا، بَل جعَلهَا اللهُ تعَالَىٰ هبَاءً مَنثُورًا.

الأمرُ جِدٌّ لا هَزلَ فِيهِ، وعَلَىٰ العَبدِ أنْ يُراقِبَ قَلبَهُ، وأنْ يُراعِيَ ضَمِيرَهُ، وأنْ يَجتهِدَ فِي تَحقِيقِ الإخْلاصِ للهِ تعَالَىٰ، وفِي تَحقِيقِ المُتابَعَةِ للنَّبيِّ ﷺ، لأنَّهُ لَا نَجاةَ إلَّا بِتَجرِيدِ التَّوحِيدِ لِلعَزيزِ المَجِيدِ، وبتَجرِيدِ المُتابَعَةِ للمَعصُوم ﷺ.

فهَؤلاءِ الذِينَ أَتَوا بتِلكَ الأعمَالِ العَظيمَةِ منَ الحَسَناتِ كأمثَالِ جِبالِ تِهَامَةَ بيضًا، لَم يَحفظُوهَا مِن الفَسَادِ، وعَدَوا عَليها بالإفسَادِ، فجَعَلهَا اللهُ تعَالَىٰ هبَاءً مَنثُورًا.

وحِفظُ العَملِ ممَّا يُحبِطُهُ ويُفسِدُهُ عَزيزٌ نَادِرٌ، كَمَا قَالَ الشَّيخُ -رَحمَهُ اللهُ تعَالَىٰ- فِي هذِهِ المَرتَبَةِ: «**وهَذَا مِنْ أَقَلِّ الأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا**».

أقلُّ النَّاسِ مَن يَفعَلُ الفِعلَ الحَسنَ الصَّالِحَ ثُمَّ يُراقِبُ هَذَا العَمَلَ حتَّىٰ لا يَحبَطَ، وكَثيرٌ جِدًّا منَ الناسِ يأتُونَ الصَّالحَاتِ ثُمَّ يَكرُّونَ عَليهَا بعدَ ذَلكَ بجَيشٍ -بَل بجُيوشٍ- الإفسَادِ والإبطَالِ، وهَذَا أَمرٌ فِي الحَقِيقَةِ لَا يَأتِي إلَّا مِنَ السُّفهَاءِ، وَلَو أنَّ هؤُلاءِ نوَّرَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بَصَائِرَهُم، واتَّبعُوا النَّبيَّ ﷺ، ظَاهرًا وبَاطِنًا، لكَانُوا أحرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ مَا بَذلُوا فيهِ الجَهدَ وأنفقُوا فِيهِ الأموَالَ، ويَخَافُونَ أنْ تُحبَطَ تِلكَ الأعمَالُ كَمَا بَيَّنَ ذَلكَ ربُّنا -تَبَارَكَ وتعَالَىٰ- فِي كتَابِهِ، ونَبيُّنا ﷺ فِي صَحيحِ سُنَّتِهِ.

فالخَوفُ مِن حُبوطِ الأعمالِ بَعدَ وقُوعِهَا مِنَ الوَاجبَاتِ التِي تَجبُ عَلينَا نَحوَ مَا كلَّفَنَا اللهُ تعَالَىٰ بِهِ.

إذَا عَرَفتَ هَذَا، وعَرفْتَ أنَّ هَذَا وَاجبٌ عَليكَ فِي كلِّ أمرٍ أمَرَكَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بِهِ، وهُوَ أنْ تَحذَرَ أنْ يَحبَطَ العَملُ بَعدَ أنْ يَقَعَ، وأنَّ هَذَا وَاجبٌ عَليكَ أوجَبَهُ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- عَليكَ نَحوَ كلِّ أمْرٍ أمَرَكَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بهِ، لَو أنَّكَ عَرَفتَ هَذَا وتَيقَّنتَهُ لتغيَّرَتْ مَسيرَةُ الحَياةِ ولأُعيدَتْ صِياغَتُهَا بَعدُ.



* **الْمَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَىٰ الحَقِّ وَالخَوْفُ مِن سُوءِ الخَاتِمَةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْكُم مَن يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجُنَّةِ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ».**

وَهَذِهِ أَيْضًا: مِن أَعْظَمِ مَا يَخَافُ مِنْهُ الصَّالِحُونَ؛ وَهِيَ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا؛ فَالتَّفَكُّرُ فِي حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ، فِي هَذَا وَغَيْرِهِ، يَدُلُّكَ عَلَىٰ شَيْءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ؛ وَاللهُ أَعْلَمُ.

الشــرح

فذكَرَ الشَّيخُ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَىٰ- المَرتبَةَ السابِعَةَ منَ مَرَاتِبِ الوَاجبِ عَلينَا نَحوَ مَا أَمَرَنَا اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بِهِ مِن أمرٍ، فكُلُّ أمرٍ أمرَكَ اللهُ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- بِهِ فوَاجِبٌ عَليكَ فيهِ هذِهِ المَراتِبُ السَّبعُ آخرِهُا هَذَا المَذكُورُ وهُوَ «**الثبَاتُ عَلَىٰ الحَقِّ والخَوفُ مِنْ سُوءِ الخَاتِمَةِ**».

والثَّبَاتُ: الاستقَامَةُ عَلَىٰ الهُدَىٰ، والتمسُّكُ بالتُّقَىٰ، وإلجَامُ النَّفسِ، وقَسْرُهَا عَلَىٰ سُلوكِ طَرِيقِ الحَقِّ والخَيرِ، وعَدمِ الالتفَاتِ إِلَىٰ صَوارِفِ الهَوَىٰ والشَّيطَانِ، ونَوازِعِ النَّفسِ والطُّغيَانِ، مَعَ سُرعَةِ الأَوْبَةِ والتَّوبَةِ حالَ مُلابَسَةِ الإثْمِ، أوِ الرُّكُونِ إِلَىٰ الدُّنيَا.

ومِن أسبَابِ الثَّباتِ: تَدبُّرُ القُرآنِ، وحُسنُ الصِّلةِ باللهِ تعَالَىٰ، والدعَاءُ، وصُحبَةُ الصَّالِحِينَ، والاطِّلاعُ عَلَىٰ سِيرِ السَّلفِ السَّالِفِينَ، والثِّقةُ بنَصرِ اللهِ رَبِّ العَالمِينَ.

والخَوفُ مِن سُوءِ الخَاتمَةِ -أعاذَنَا اللهُ مِن ذَلكَ- لهُ أسبَابٌ، ولخَاتِمَةِ السُّوءِ طرُقٌ وأبوَابٌ.

وأَعظمُ الأسبَابِ التِي تُفضِي لسُوءِ الخَاتمَةِ: الانكِبَابُ عَلَىٰ الدُّنيَا، وَالإعرَاضُ عَن الأخرَىٰ، وَالإقدَامُ والجَرْأةُ عَلَىٰ المَعصِيةِ، فإذَا مَا كَانَ للإنسَانِ نَصيبٌ مِن ذَلكَ ومَلَكَ قلبَهُ، وسبَىٰ عقلَهُ، وأطفَأَ نُورَهُ، وأرسَلَ عَليهِ حُجُبَهُ لَمْ تَنفَعْ فِيهِ تَذكِرةٌ، ولَمْ تَنجَحْ مَعَهُ مَوعِظَةٌ، فرُبَّمَا جاءَ المَوتُ عَلَىٰ ذَلكَ فسَمِعَ النداءَ مِن مَكانٍ بَعيدٍ فَلَم يتَبيَّنِ المُرادَ، ولَا عَلمَ مَا أرَادَ، وإنْ كرَّرَ عَليهِ الدَّاعِي وأعَادَ.

وفِي الصَّحيحَينِ عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ ﵁: أنَّ النَّبيَّ ﷺ التَقَىٰ هُو والمُشرِكُونَ وفِي أصحَابِهِ رَجلٌ -يَعنِي: فِي أصحَابِ النَّبيِّ ﷺ- لا يَدَعُ شَاذَّةً ولا فَاذَّةً إلَّا اتَّبَعَهَا يَضرِبُهَا بسَيفِهِ، فقَالَ الصحَابَةُ ﵃: مَا أجزَأَ مِنَّا اليومَ أحَدٌ كمَا أَجزَأَ فُلانٌ، مَا قَامَ مِنَّا أحَدٌ فِي الجِهَادِ مقَامَ فُلانٍ، هَذَا الذِي كانَ لا يَدَعُ منَ العَدُوِّ شَاذَّةً ولَا فَاذَّةً إلَّا اتَّبَعهَا يَضرِبُها بسَيفِهِ. فقَالَ النَّبيُّ ﷺ لَمَّا سَمعَ هَذَا مِن أصحَابِهِ ﵃: «**هُو مِن أهلِ النَّارِ**».

هَذَا الذِي قامَ هَذَا المَقامَ، وفعَلَ هَذَا الفِعلَ، ولَم يدَعْ شاذَّةً ولا فَاذَّةً فِي صُفوفِ الأعدَاءِ إلَّا اتَّبعَهَا يضرِبُها بسَيفِهِ، هَذَا الذِي أُعجِبَ بِهِ الأصحَابُ وقالُوا: مَا أجزَأَ منَّا أحَدٌ اليَومَ مَا أجزَأَ فُلانٌ. هَذَا قالَ النَّبيُّ ﷺ عَنهُ: «**هُو فِي النَّارِ**».

فقالَ رجُلٌ مِنَ القَومِ: أنَا صَاحِبُهُ، وسَأنظُرُ لَكُمْ خَبَرَهُ، فاتَّبَعَهُ فجُرِحَ الرجُلُ جُرحًا شَدِيدًا، فاستَعجَلَ المَوتَ، فوَضعَ نَصلَ سَيفِهِ عَلَىٰ الأرْضِ وذُبَابُهُ -أَي: طَرَفُهُ- بَينَ ثَديَيْهِ، ثُمَّ تحَامَلَ عَلَىٰ سَيفِهِ فقَتَلَ نَفسَهُ، فخَرَجَ ذَلكَ الرَّجُلُ إلَىٰ الرسُولِ ﷺ فقَالَ: أشهَدُ أنَّكَ رسُولُ اللهِ ﷺ، وقَصَّ عَليهِ القِصَّةَ، فقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الرجُلَ ليَعمَلُ عَملَ أهلِ الجَنَّةِ فيمَا يَبدُو للنَّاسِ، وهُو مِن أهلِ النَّارِ، وإنَّ الرجُلَ ليَعمَلُ بعَملِ أهلِ النَّارِ**

فيمَا يَبدُو للنَّاسِ وهُو مِن أهلِ الجَنَّةِ»[(١)].

زَادَ البُخارِيُّ فِي رِوايَةٍ لَهُ: «**إنَّمَا الأعمَالُ بالخَوَاتِيم**»[(٢)].

فكَانَ الصَّالِحُونَ، وكَانَ الصَّحابَةُ ﭬ يخَافُونَ ويحذَرُونَ سُوءَ الخَاتِمَةِ، وَلا يَأمَنُ الخَاتِمَةَ إلَّا مَخدُوعٌ مَغرُورٌ، لأنَّ الصحَابةَ ﭬ كانُوا يخَافُونَ عَلَىٰ أنفُسِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ حتَّىٰ إنَّ عُمرَ -رِضوَانُ اللهِّ عَليهِ-، سَألَ حُذيفَةَ ﭬ -وكَانَ صَاحبَ سِرِّ رَسُولِ اللهِّ ﷺ-، فأخبَرَهُ بمَنْ أخبَرَهُ منَ المُنافِقينَ مِن أسمَائِهِم، فكَانَ عُمرُ ﭬ لَا يَشهَدُ جنَازَةً يشُكُّ فِي صَاحِبهَا حتَّىٰ ينظُرَ حُذَيفَةَ: أشَهِدَ تِلكَ الجَنَازَةَ أمْ لَا؟ فَإنْ شَهِدَهَا حُذيفَةُ شَهِدَهَا عُمرُ ﭬ، وإنْ لَمْ يشهَدْهَا لَمْ يشهَدْهَا، ثُمَّ إنهُ سَألَ حُذيفَةَ ﭬ فقَالَ: نَشَدْتُكَ اللهَّ يَا حُذيفَةُ هَل ذَكَرنِي رسُولُ اللهَّ ﷺ فيمَنْ ذَكَرَ -يعنِي: مِنَ المُنافِقينَ-، قالَ: اللَّهُمَّ لَا، ولَا أُزكِّي أحَدًا بَعدَكَ.

فإذَا كانَ عُمرُ -رِضوَانُ اللهِّ عَليهِ- هُو المُحدَّثُ المُلهَمُ الذِي إذَا سَلَكَ فَجًّا سَلَكَ الشَّيطَانُ فَجًّا غَيرَهُ، عُمرُ الفَارُوقُ وَزيرُ رسُولِ اللهِّ ﷺ، ومَنْ لَهُ فِي الإسْلامِ المَشَاهِدُ والمَواقِفُ المَعروفَةُ، إذَا كانَ عُمرُ يخشَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ النِّفَاقَ فكَيفَ بِنَا؟!!

فَلا يأمَنُ النِّفَاقَ إلَّا مُنافِقٌ، ولَا يَخافُ النِّفَاقَ إلَّا مُؤمِنٌ.

وقَد قَالَ ابنُ أبِي مُلَيكَةَ -كَمَا تَجِدُ ذَلكَ فِي صَحيحِ البُخارِيِّ-[(٣)] قَالَ: إنهُ شَهِدَ ثَلاثِينَ مِن أصحَابِ النَّبيِّ ﷺ مَا مِنهُمْ وَاحدٌ إلَّا وهُو يخَافُ النفَاقَ عَلَىٰ نَفسِهِ.

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٠٧).

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

أصحَابُ النَّبيِّ ﷺ كانَ الوَاحدُ مِنهُم يَخشَىٰ أنْ يُختَمَ لهُ بِشَرٍّ؛ فَكيفَ بمَنْ دُونَهم؟!

نسأَلُ اللهَ أنْ يُثبِّتَنَا وأنْ يُحسِنَ خِتامَنَا أجمَعِينَ.

قولُهُ: «**فِيمَا يَبدُو للنَّاسِ**»: إشَارةٌ إلَىٰ أنَّ باطِنَ الأمرِ يكُونُ بخَلافِ ذَلكَ، وأنَّ خَاتمَةَ السُّوءِ تكُونُ بسَببِ دَسِيسةٍ باطِنةٍ للعَبدِ لا يَطَّلِعُ عَليها النَّاسُ.

قالَ عَبدُ العَزِيزِ بنُ أبِي رَوَّادٍ[1]: حضَرْتُ رَجُلًا عِندَ المَوتِ يُلَقَّنُ بالشَّهادَةِ «**لَا إلهَ إلَّا اللهُ**»، حضَرهُ عِندَ احتِضَارِهِ -عِندَ مَوتِهِ- ومَن عِندَهُ يلقِّنُهُ يقُولُ: يَا فُلانُ، قُل: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، فقَالَ ذَلكَ المُحتَضَرُ فِي آخِرِ مَا قَالَ: هُو كَافرٌ، ومَاتَ عَلَىٰ ذَلكَ. قالَ ابنُ أبِي رَوَّادٍ: سَألْتُ عنهُ فإذَا هُوَ مُدمِنُ خَمرٍ، فكَانَ عَبدُ العَزيزِ بنُ أبِي روَّادٍ يقُولُ بعدُ: اتَّقُوا الذُّنوبَ فَإنَّهَا هِي التِي أوقَعَتْهُ.

فهذِهِ الدَّسِيسَةُ البَاطِنَةُ، والحَسِيكَةُ الكَامِنَةُ، وذَلكَ الشَّرُّ الذِي يُغيَّبُ فِي الضَّمِيرِ فِي أطوَائِهِ، هُو الذِي يَخذُلُ العَبدَ عِندَ شُهودِ مَلائِكَةِ المَوتِ، عِندَ قَبضِ رُوحِهِ، كَمِثلِ هَذَا الذِي كانَ مُدمِنًا للخَمرِ يُقالُ لهُ قُل: «**لَا إلهَ إلَّا اللهُ**»، فيدَفَعُ ذَلكَ حتَّىٰ كانَ فِي آخِرِ مَا قَالَ: إنَّهُ كافِرٌ، ثُمَّ قَضَىٰ ومَضَىٰ، نَسألُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ السَّلامَةَ والعَافِيةَ.

وفِي الجُملَةِ: فالخَواتِيمُ مِيراثُ السَّوابِقِ، فكُلُّ ذَلكَ سَبقَ فِي الكِتابِ السَّابِقِ، وكانَ يشتدُّ خَوفُ السَّلفِ مِن سُوءِ الخَواتِيمِ، ومِنهُم مَن كَانَ يَقلَقُ مِن ذِكرِ السَّوَابِقِ.

وقَد قِيلَ: إنَّ قُلوبَ الأبرَارِ مُعلَّقةٌ بالخَواتِيمِ، يقُولُونَ: بمَاذَا يُختَمُ لنَا؟

وقُلوبُ المُقرَّبينَ مُعلَّقةٌ بالسَّوابِقِ، يقُولُونَ: مَاذَا سَبقَ لنَا فِي أمِّ الكِتابِ؟

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المُحْتَضَرين برقم (٢٨٦)، وأورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٧٥).

وقَالَ سُفيانُ بنُ عُيينَةَ لأحَدِ الصَّالحِينَ[١]: هَل أبكَاكَ قطُّ عِلمُ اللهِ فِيكَ؟

لأنَّ الوَاحدَ مِنهُم كانَ يقُولُ لأخِيهِ: اجلِسْ بنَا نَبكِي سَاعةً عَلَىٰ عِلمِ اللهِ فِينَا.

لأنَّ العبدَ لَا يَدرِي مَا سَيئُولُ إلَيهِ الأمرُ، ولعلَّهُ يتَخبَّطُهُ الشَّيطَانُ عندَ المَوتِ وَالنَّبيُّ ﷺ كانَ مِن دُعائِهِ: «**وأعُوذُ بكَ أنْ يتخَبَّطَنِي الشَّيطَانُ عِندَ المَوتِ**»[٢].

وفِي الحِكايَةِ المَشهُورَةِ عنِ الإمَامِ أحمَدَ -رَحمَةُ اللهِ عَليهِ-[٣] وكانَ وَلَدُهُ عِندَهُ، فكَانَ يُلقِّنُهُ فِي حالِ احتِضَارِهِ، فأُغمِيَ عَليهِ، فكَانَ ولَدُهُ يقُولُ لَهُ قَبلَ الإغمَاءِ: يَا أَبتِ، قُل: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، فكَانَ يَرُدُّ بقَولِهِ: لَا بَعدُ، لَا بَعدُ، ثُمَّ أُغشِيَ عَليهِ، فلَمَّا أفَاقَ أقبَلَ عَليهِ ولَدُهُ فقَالَ: يَا أبتِ، قُلتَ وقُلتَ وخَشِيتُ عَلَيكَ، فقَالَ: يَا وَلَدِي لَمْ أكُنْ مِمَّنْ يُخاطِبُكَ، ولَكنَّ الشَّيطَانَ جاءَنِي عَاضًّا عَلَىٰ إبْهَامِهِ يَقُولُ: فُتَّنِي يَا أحمَدُ، فقَلتُ: لَا بَعدُ؛ حتَّىٰ تَخرُجَ الرُّوح.

فلا يأمَنُ مَكرَ اللهِ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- حتَّىٰ تكُونَ إحدَىٰ قدَمَيهِ فِي الجنَّةِ، لا؛ بَل حَتَّىٰ تَصيرَ قَدمَاهُ فِي الجنَّةِ، ولذَلكَ كانَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَبكِي ويقُولُ: يَا لَيتَنِي كُنتُ شَعرةً فِي جَنبِ عبدٍ مُؤمِنٍ، يَا لَيتَنِي كُنتُ شَجرَةً تُعْضَدُ.

وعُمرُ -رِضوَانُ اللهِ عَليهِ- وهُو فِي سِياقِ المَوتِ لَمَّا أفَاقَ مِن غَشيَتِهِ فوَجَدَ رَأسَهُ فِي حِجرِ ولَدِهِ عَبدِ اللهِ فَقَالَ لَهُ: ضَعْ خدِّي عَلَىٰ الأَرضِ؛ عَسَىٰ أنْ يَرَىٰ ذُلِّي فَيَرحَمَنِي!

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٢٤٦)، وأورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٥٧).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣١)، وأحمد (١٥٠٩٧) من حديث أبي اليَسَرِ كعب بن عمرو السُّلَمي رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٨٣)، وابن الجوزي في الثبات عند المات (ص١٦٠).

فإذَا كانَ هؤُلاءِ -رِضوَانُ اللهَّ عَليهِم- بِهذِهِ المَثَابَةِ مِنَ الخَوفِ مِن سُوءِ الخَاتِمَةِ، فكَيفَ بمَنْ عَاشَ فِي عصرٍ كُلُّهُ فِتنٌ، تمُوجُ فِيهِ الفِتنُ مَوجًا، وتَضطَرِمُ فِيهِ المِحَنُ اضطِرَامًا؟! فنَسألُ اللهَّ التَّثبِيتَ والعَافِيةَ.

كانَ الصَّحابَةُ ومَن بَعدَهُم مِنَ السَّلفِ الصَّالِحِ يخَافُونَ عَلَىٰ أنفُسِهِمْ النفاقَ، ويشتَدُّ قَلقُهُمْ وجَزَعُهُم مِنهُ، فالمُؤمِنُ يخَافُ عَلَىٰ نَفسِهِ النفَاقَ الأصغَرَ، ويخَافُ أنْ يَغْلِبَ ذَلكَ عَليهِ عِندَ الخاتِمَةِ فيُخرِجَهُ إِلَىٰ النفَاقِ الأكبَرِ، فدَسائِسُ السُّوءِ الخَفيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الخَاتمَةِ.

كانَ سُفيانُ يشتَدُّ قَلقُهُ مِنَ السَّوابِقِ والخَواتِيمِ فكَانَ يَبكِي ويَقُولُ: أخَافُ أنْ أكُونَ فِي أمِّ الكِتابِ شَقيًّا، ويَبكي ويقُولُ: أخَافُ أنْ أُسْلَبَ الإيمَانَ عِندَ المَوتِ، لأنَّ للمَوتِ سَكراتٍ كمَا ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ.

قالَ سُفيَانُ بنُ عُيينَةَ لأحَدِ الصَّالحِينَ[1]: هَل أبكَاكَ قَطُّ عِلمُ اللهِ فِيكَ؟ فقَالَ لَهُ ذَلكَ الرَّجُلُ: تَركتَنِي لَا أفرَحُ بعدَهَا أبَدًا.

يَعنِي: صَدَعتَ قَلبِي بِهَذَا الكَلامِ فَلنْ يدخُلَهُ فَرَحٌ بَعدُ.

كانَ النَّبيُّ ﷺ يسأَلُ اللهَّ تَصرِيفَ القَلبِ عَلَىٰ الطَّاعةِ.

أخرجَ مُسلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِن حَديثِ عَبدِ اللهَّ بنِ عَمرٍو سَمِعَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يقُولُ: **«إنَّ قُلوبَ بني آدَمَ كلَّهَا بَينَ أُصْبُعَيْنِ مِن أصابِعِ الرَّحمَنِ** ﷻ **كقَلْبٍ وَاحدٍ يُصَرِّفُهُ حَيثُ يشَاءُ»**، ثُمَّ قالَ رسُولُ اللهَّ ﷺ: **«اللَّهُمَّ مُصرِّفَ القُلوبِ صَرِّفْ قُلوبنَا عَلَىٰ طاعَتِكَ»**[2].

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

وذَلكَ لأنَّ الأعمَالَ بخَواتِيمِهَا.

وأخرَجَ ابنُ حِبَّانَ عَن مُعاوِيَةَ ﷺ قالَ: سَمعْتُ رسُولَ اللهَّ ﷺ يقُولُ: «**إنَّمَا الأعمَالُ بخَواتِيمِهَا، كالوِعاءِ إذَا طَابَ أعلاَهُ طَابَ أسفَلُهُ، وإذَا خَبُثَ أعلاَهُ خَبُثَ أسفَلُهُ**»(١).

وأخرَجَ مُسلِمٌ عَن أبِي هُريرَةَ ﷺ عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الرَّجُلَ ليَعمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ ثُمَّ يُختَمُ لَهُ عَملُهُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، وإنَّ الرجُلَ ليَعمَلُ الزَّمانَ الطَّويلَ بعمَلِ أهلِ النَّارِ ثُمَّ يُختَمُ لَهُ عَملُهُ بعَملِ أهلِ الجنَّةِ**»(٢).

ولذلِكَ: سُكُونُ القَلبِ إلَىٰ العَملِ الصَّالِحِ مِنَ الغُرورِ، هَذَا لَيسَ مِنَ الإيمَانِ الصَّحِيحِ فِي شَيءٍ، أن يسكُنَ القَلبُ إلَىٰ العَملِ الصَّالِحِ، وَأنَّ الإنسَانَ إذَا كانَ يأتِي أطرَافًا مِمَّا كَلَّفَهُ اللهُ تعَالَىٰ بِهِ يأتِيهِ عَلَىٰ نَحوٍ مِنَ الأنحَاءِ فَإنَّهُ حِينئذٍ يأمَنُ عذَابَ اللهِ ويأمَنُ سَوءَ الخَاتِمَةِ، هَذَا كُلُّهُ مِنَ الغُرورِ الذِي يَنبغِي أنْ يُزِيلَهُ المُؤمِنُ مِن قَلبِهِ، وأنْ يخَافَ سُوءَ الخَاتِمَةِ، وَأنْ يسألَ اللهَّ الثَّبَاتَ، كَمَا سَأَلَهُ النَّبيُّ ﷺ، وأنْ يسألَ اللهَّ -تَبَاركَ وتعَالَىٰ- تَصرِيفَ القَلبِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ.

أخرَجَ التِّرمِذِيُّ عَن أمِّ سَلمَةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُكثِرُ فِي دُعائِهِ أنْ يقُولَ: «**يَا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قَلبِي عَلَىٰ دِينِكَ**».

هَذَا دُعاءُ الرسُولِ ﷺ فقِيلَ لَهُ فِي ذَلكَ، فقَالَ: «**إنهُ لَيسَ آدَميٌّ إلَّا وقَلبُهُ بَيْنَ**

---

(١) حديث حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٣٩)، وحسَّنه مُحقق صحيح ابن حبان.

وأخرجه ابن ماجه (٤١٩٩)، وأحمد (١٦٤١١) بلفظ: «**إنَّ مَا بقِيَ منَ الدُّنيَا بَلاءٌ وفِتنَةٌ، وإنَّمَا مَثَلُ عَمَلِ أحَدِكُمْ كَمَثَلِ الوعَاءِ، إذَا طَابَ أعلاَهُ طَابَ أسفَلُهُ، وإذَا خَبُثَ أعلاَهُ خبُثَ أسفَلُهُ**».

وهذا لفظُ الإمام أحمَدَ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٣٤).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥١).

إِصبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ ﷻ، فمَنْ شَاءَ أقامَهُ، ومَن شَاءَ أزَاغَهُ»[(١)].

فَلا تَدرِي مِن أيِّ الفَرِيقَينِ أنتَ؟

أَمِمَّنْ يُقيمُهُ؟ أَمْ مِمَّنْ يُزيغُهُ؟

لا يَستطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يجزِمَ بأحَدِ هذَينِ الاحتِمَالَينِ، ومَن رَجَّحَ رَجَّحَ مِنْ غَيرِ مُرجِّحٍ وتعَسَّفَ وجَارَ، فإِذَنْ الاحتِمَالُ قَاضٍ بأنَّ الإنسَانَ يُمكِنُ أنْ يمُوتَ عَلَىٰ غَيرِ المِلَّةِ، وأنَّ المُسلِمَ مَهمَا كانَ عمَلُهُ صَالحًا وكانَ عَظيمًا يُمكِنُ أنْ يُسلَبَ الإيمَانَ عِندَ السِّياقِ وعِندَ الاحتِضَارِ.

فهَذَا أمرٌ يَنبغِي عَلَىٰ المَرءِ أنْ يُلاحِظَهُ، وأنْ يخَافَ مِنهُ، وأنْ يتلَدَّدَ لأجلِهِ عَلَىٰ فِراشِهِ بِلَيلٍ حتَّىٰ يُقَضَّ مَضجَعُهُ، فيَقُومَ للهِ ربِّ العَالَمِينَ قَائمًا مُسبِّحًا وذَاكِرًا ومُصَلِّيًا ولِلقُرآنِ تَاليًا، مخَافَةَ أنْ يُقبَضَ، وأنْ تَسُوءَ خاتِمَتُهُ.

لقَدْ بَكَىٰ سُفيَانُ الثَّورِيُّ لَيلةً إِلَىٰ الصَّبَاحِ فلَمَّا أصبحَ قِيلَ لَهُ: كُلُّ هَذَا خَوفًا مِنْ الذُّنُوبِ؟! فَأخَذَ نَبتَةً مِنَ الأَرْضِ وقَالَ: الذُّنُوبِ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وإِنَّما أَبكَي مِنْ خَوفِي سُوءَ الخَاتِمَةِ.

وهَذَا مِنْ أعظَمِ الفِقهِ: أَنْ يخَافَ الرجُلُ أَنْ تَخذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِندَ المَوتِ، فيُحَالَ بينَهُ وبَينَ الخَاتِمَةِ الحُسنَىٰ.

وسُوءُ الخَاتِمَةِ عَلَىٰ دَرَجَتَينِ:

الأُوْلَىٰ: أن يَغلِبَ عَلَىٰ القَلبِ -والعِياذُ باللهِ- شَكٌّ أَوْ جُحُودٌ عِندَ سَكَرَاتِ المَوتِ وأَهوَالِهِ، فيَقتَضِي ذَلكَ العَذَابَ الدَّائِمَ والخُلودَ فِي النَّارِ، وهذِهِ أعظَمُ الدَّرَجَتَيْنِ؛ يعنِي:

(١) **حديث صحيح:** أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٠١).

يُمكِنُ أنْ يُسلَبَ الإيمَانَ عِندَ المَوتِ، ومَنِ الذِي يَجزِمُ بأَنَّهُ سَيمُوتُ مُسلِمًا؟ لَا يَجزِمُ بذَلِكَ أحدٌ، لأنَّ الإنسَانَ يُمكِنُ أنْ يُسْلَبَ الإيمَانَ عِندَ المَوتِ فيمُوتَ عَلَىٰ غَيرِ المِلَّةِ، نَسألُ اللهَ التَّثبيتَ والعَافِيةَ.

وأمَّا الثَّانيَةُ: وهِيَ أهوَنُ مِنهَا، فأَنْ يتسَخَّطَ الأقدَارَ، أو يتكلَّمَ بالاعتِرَاضِ، أو يَجُورَ فِي الوَصيَّةِ، أو يمُوتَ مُصِرًّا عَلَىٰ ذنبٍ منَ الذُّنوبِ، وهذِهِ دُونَ الأُولَىٰ.

ومِن أسبَابِ سُوءِ الخَاتمَةِ: الشَّكُّ والجُحُودُ ومَا تُسبِّبُهُ البِدعَةُ الاعتقَادِيَّةُ، فالبدعَةُ الاعتقَاديَّةُ تُفضِي إلَىٰ سُوءِ الخَاتمَةِ، وكذَلكَ التَّسوِيفُ بالتَّوبَةِ، وطُولُ الأمَلِ، وحُبُّ المعَاصِي وإِلْفُهَا واعتِيادُهَا، واختلافُ السَّريرَةِ والعَلانيَةِ، والظَّاهِرِ والبَاطِنِ، والقَولِ والعَملِ، وهَذَا هُو النفَاقُ.

فكلُّ ذلكَ مُفضٍ إلَىٰ سُوءِ الخاتمَةِ -والعيَاذُ باللهِ- وغيرُ ذلكَ منَ الأسبَابِ التِي لَا تُحصَىٰ عَلَىٰ سَبيلِ التفصِيلِ؛ نسألُ اللهَ الثباتَ والعَافيَةَ.

لَمَّا ذكَرَ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ المَرتبَةَ السَّابعَةَ مِن مَرَاتبِ مَا أوجَبَ اللهُ عَلينَا نَحوَ مَا أمرَنَا اللهُ بهِ؛ وهِيَ الثبَاتُ عَلَىٰ الحقِّ والخَوفُ مِن سُوءِ الخَاتمَةِ قالَ: «**وَهَذِهِ أَيضًا مِن أَعْظَمِ مَا يَخَافُ مِنْهُ الصَّالِحُونَ وَهِي قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا**»، ثُمَّ سَاقَ نَصِيحةً عَظيمَةً هِيَ: «**وَالتَّفَكُّرُ فِي حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ يَدُلُّكَ عَلَىٰ شَيءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ**»، ثُمَّ ختَمَ الرسَالَةَ بِرَدِّ العِلمِ إلَىٰ اللهِ تعَالَىٰ فقَالَ: «**واللهُ أعلَمُ**».

❊ ❊ ❊

نقُولُ:

وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عَلَىٰ نبينَا مُحمَّدٍ ﷺ، فهَذَا مَا مَنَّ اللهُ -تبَارك وتعَالَىٰ- بهِ مِن شَرحٍ لهذِهِ الرسَالَةِ المُوجَزَةِ، فهذِهِ الرسَالَةُ فِي صفحَتَينِ، ولكنَّهَا جامِعَةٌ لهَذَا القَدْرِ العظِيمِ مِنَ الخَيرِ كمَا مرَّ، وهَذَا مَا منَّ اللهُ -تبَاركَ وتعَالَىٰ- بهِ مِن شَرحٍ وتَعلِيقٍ عَليهَا.

نسألُ اللهَ -تبَاركَ وتعَالَىٰ- أنْ يجعَلَ ذلِكَ خَالصًا لوجْهِهِ الكَريمِ، وأنْ يتَقبلَهُ بقَبُولٍ حسَنٍ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وآخرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.



فهرس الموضوعات

مُقدِّمَةُ الشَّارِحِ ٥

مَتنُ الرِّسَالَةِ.. ١٣

بداية الشرح:

إِذَا أَمَرَ الله العَبْدَ بِأَمْرٍ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ: ١٧

* الْمَرْتَبَةُ الأُولَىٰ: العلمُ بأنَّ الله أَمَرَ بالتوحيدِ ونَهَىٰ عَنِ الشِّركِ ٢٠

مَا وَجبَ عَليكَ فِعلُهُ وَجبَ عَليكَ تعلُّمُهُ................................. ٢١

* الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: مَحَبَّةُ مَا أَنْزَلَ الله، وَكُفْرُ مَنْ كَرِهَهُ................................. ٢٦

* الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَىٰ الفِعْلِ ٣٥

* الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: العَمَلُ.. ٤٠

* الْمَرْتَبَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ عَمِلَ لَا يَقَعُ عَمَلُهُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا لَمْ يَقَعْ صَوَابًا.. ٤٦

* الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِن حُبُوطِ الْعَمَلِ، وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا.. ٥٣

مُحاسَبةِ النَّفسِ بعدَ العَملِ ثَلاثَةُ أنوَاعٍ: ٥٣

أحدُهَا: مُحاسبتُهَا عَلَىٰ طاعةٍ قصَّرَتْ فيهَا مِن حقِّ اللهِ تعَالَىٰ....................٥٣

حقُّ اللهِ -تَبَارك وتعَالَىٰ- فِي الطاعَةِ ستَّةُ أمُورٍ ٥٤

وَالثَّانِي: أنْ يُحاسِبَ نَفسَهُ عَلَىٰ كُلِّ عَملٍ كانَ تَرْكُهُ خَيرًا لَهُ مِن فِعلِهِ ٥٤

وَالثَّالِثُ: أنْ يُحاسبَ نَفسَهُ عَلَىٰ أمرٍ مُباحٍ أوْ مُعتادٍ: لِمَ فَعلَهُ؟ وهل أرَادَ بِهِ اللهَ والدارَ الآخِرَةَ فيكُونَ رَابحًا ، أوْ أرَادَ بِهِ الدُّنيَا وعَاجِلَهَا فيَخسَرَ ذَلكَ الرِّبحَ ويفُوتَهُ الظَّفَرُ بِهِ؟!...٥٥

لَيسَتِ العِبْرَةُ فِي العَملِ، وإنمَا العِبْرَةُ فِي حِفظِ العَملِ ممَّا يُحبِطُهُ ويُبطِلُهُ ويُفسِدُهُ بعدَ أنْ وقَعَ صَحِيحًا ٥٥

* المَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَىٰ الحَقِّ وَالخَوْفُ مِن سُوءِ الخَاتِمَةِ ٦٠

تعريف الثبات وذكر أسبابه ٦٠

أعظمُ الأسبَابِ التِي تُفضِي لسُوءِ الخَاتمَةِ.....................................٦١

قُلوبُ الأبرَارِ مُعلَّقةٌ بالخَواتِيمِ ٦٣

أعظَمُ الفِقهِ: أنْ يَخافَ الرجُلُ أنْ تَخذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِندَ المَوتِ، فيُحَالَ بينَهُ وبَينَ الخَاتمَةِ الحُسنَىٰ..٦٧

سُوءُ الخَاتِمَةِ عَلَىٰ دَرجَتَينِ: ٦٧

الأُوْلَىٰ: أن يَغلِبَ عَلَىٰ القَلبِ شَكٌّ أوْ جُحُودٌ عِندَ سَكَرَاتِ المَوتِ وأهوَالِهِ، فيَقتَضِي ذَلكَ العَذَابَ الدَّائِمَ والخُلودَ فِي النَّارِ ٦٧

الثَّانيَةُ: أَنْ يتسَخَّطَ الأقدَارَ، أو يتكلَّمَ بالاعتِرَاضِ، أو يَجُورَ فِي الوَصيَّةِ، أو يمُوتَ مُصِرًّا عَلَىٰ ذنبٍ منَ الذُّنوبِ..٦٨

الخاتمة...٦٩

الفهرس...٧٠

